جاذبية الإسلام الروحية

لماذا أسلم هؤلاء ؟

. محمد أسد . مريم جميلة . مراد هوفمان

الدكتور

أحمد عبد الرحمن

مكتبة وهبة

دكتور
أحمد عبد الرحمن

جاذبية الإسلام الروحية

لماذا أسلم هؤلاء؟

- محمد أسد
- مريم جميلة
- مراد هوفمان

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٢٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٢٣٩٠٣٧٤٦

اسم الكتاب:
جاذبية الإسلام الروحية
لماذا أسلم هؤلاء؟
اسم المؤلف: الدكتور أحمد عبد الرحمن
الطبعة: الأولى
١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة.
١٢٨ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ١٩٨٩٤ / ٢٠٠٨
الترقيم الدولي: I.S.B.N.
977-17-6243-5

تحذير

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة (للطباعة والنشر). غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية، أو ميكانيكية، أو نقله بأي وسيلة أخرى، أو تصويره، أو تسجيله على أي نحو، بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر.

All rights reserved to Wahbah Publisher. No Part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ﴾

[الزمر : ٢٣]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة عامة

يمكن القول إن نبذ الغربيين لليهودية أو المسيحية واعتناق الإسلام قد أصبح ظاهرة في النصف الثاني من القرن العشرين. وقد ذكرت صحيفة الإندبندانت البريطانية أن ثمانمائة بريطاني يتحولون إلى الإسلام سنويًا في منطقة "مارك فيلد" وحدها.

لكن تحول المفكرين الأوربيين إلى الإسلام هو الذي يثير الكثير من التساؤلات. ومن أبرز المفكرين الأوربيين الذين اعتنقوا الإسلام في القرن الماضي ناصر الدين دينيه - الفرنسي، ومحمد مارمادوك بكثول- البريطاني الذي ترجم معاني القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية، والبرفيسور فريثيوف شون- السويسري أستاذ علم الدين المقارن، ورجاء جارودى - الفرنسي والكاتب الشهير، ومن قبلهم السير ريتشارد بيرتون (١٨٢١-١٨٩٠م) وغيرهم كثيرون.

وأثارت هذه الظاهرة اهتمام بعض المؤلفين، فدرسوها، ونشرت لهم كتب تحاول أن تفسرها. وقد انتهت السيدة فاطمة الشرقاوى في كتابها عن أولئك المهتدين إلى الإسلام إلى أن أسباب التحول إلى الإسلام متباينة تبعاً لاختلاف ظروف كل مهتدٍ، فقد يكون الزواج من مسلم أو مسلمة هو السبب في حالة، وقد يكون التخصص في اللغة العربية، أو الدراسات الشرقية هو السبب في حالة أخرى[١].

---

(١) فاطمة شرقاوي و"ليزابث روشيه Lisabeth Rocher؛ دارسيل؛ باريس؛ سنة ١٩٨٦

– ولسوف أثبت أن جاذبية الإسلام الروحية والعقلية هى السبب الأساسى لاعتناق كبار المفكرين الغربيين للإسلام.

وقد اخترت لدراستي هذه ثلاثة مهتدين من المفكرين والكتاب، وهم: ليوبولد فايس (محمد أسد)، ومارجريت ماركس (مريم جميلة)، والدكتور ويلفريد هوفمان (مراد هوفمان).

وقد تبين لي أن هناك ثلاثة أسباب أساسية لابد من وجودها لكي يمكن أن ينبذ المفكر اليهودي أو المسيحي دينه ويعتنق الإسلام:

الأول: القلق الروحي الذي يعانيه المفكر نتيجة عجز ثقافته الموروثة عن تقديم إجابات معقولة للأسئلة الوجودية الكبرى.

والثاني: وجود عوامل طرد ثقافية في الثقافة الموروثة للمفكر.

والثالث: تعرض المفكر لقوة جذب روحية وعقلية من الدين الإسلامي.

وهذا السبب الثالث قد يتحقق بسبب الدراسة أو الزواج أو العمل بين المسلمين في مجال من المجالات.

هذه الأسباب الثلاثة توجد بوضوح وقوة في حياة المفكرين الثلاثة الذين دُرسوا هنا. ويجب أن نلاحظ أن الزواج أو العمل بين المسلمين لم يكن ليؤثر في المفكر لو لم توجد جاذبية عقلية وروحية في الإسلام. وكذلك لو كان دين المفكر يتسم بالعقلانية، ويجيب على الأسئلة الوجودية الكبرى إجابة شافية، لا خرافية ولا أسطورية، لما نبذ مفكران كبيران مثل ليوبولد فايس ومارجريت ماركس الديانة اليهودية، ولما نبذ دبلوماسى دولى مرموق مثل ويلفريد هوفمان المسيحية.

ويشير المهتدون الأوربيون إلى عامل طارد آخر هو: المجتمع الصناعي وانحرافاته. فهؤلاء المفكرون ينشدون مجتمعاً عالميًّا: "أكثر عدلاً، تسوده أخلاقيات رفيعة."(١)

---

(١) د. ويلفريد هوفمان؛ الطريق إلى مكة؛ ص ١٢٤ .

ويدرس الطلاب الغربيون الثقافة الإسلامية في الجامعات : "وما تلبث الدراسة أن تصبح أكثر من مجرد مواد تدرس .. ويستيقظ كثير من الطلاب ذات يوم ليجدوا أنفسهم وقد اعتنقوا هذا الدين : الإسلام ."(١)

وهذا يتسق مع واقع تفاقم الظاهرة في العصر الحديث حيث تعاظم احتكاك الأوربيين بالإسلام والمسلمين في داخل العالم الإسلامي وخارجه، بسبب التجارة والهجرة والدراسة والسياحة . وعندما تفجر العداء للمسلمين بُعَيد ١١ / ٩ / ٢٠٠١ عقب حادث تفجير البرجين في نيويورك، وأقبل الأمريكيون على شراء الكتب الإسلامية، وازدادت معرفتهم به، تضاعف عدد المهتدين إلى الإسلام أربع مرات، كما ذكر الأستاذ خالد عوض رئيس مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية، حتى بلغ عدد المهتدين ٢٤ ألف أمريكي .

هذه الحقائق تشير إلى مسئوليتنا نحن المسلمين : أن نُحسن عرض الإسلام على الشعوب الأخرى، وأن نوفر المعرفة الدقيقة به لديهم، وعلى الأخص، لدى المفكرين والعلماء والكتاب، وأن نستعين بالمهتدين في إنجاز مهمتنا الإسلامية .

والله تعالى من وراء القصد .

الدكتور

أحمد عبد الرحمن

---

(١) د. ويلفريد هوفمان؛ الطريق إلى مكة؛ ص ١٢٤ .

الفصل الأول

المهتدي محمد أسد
(ليوبولد فايس سابقاً)

أعلن إسلامه رسميًّا سنة ١٩٢٦م

حياته وتطوره الروحي

● أسرته (١)

وُلد ليوبولد فايس في بيت يهودي هادئ في مدينة "لمبرج "Lemberg بالنمسا سنة ١٩٠٠م. وكان أبوه محاميًا. وكان جده لأبيه حاخاماً في عاصمة مقاطعة "بوكوفينا". وكانت أسرته تعاني من ذكرى مؤلمة سببها أن أحد أجداده القدماء "صَبَأ"، أي ترك اليهودية إلى النصرانية، وحلق لحيته، وسافر إلى إنجلترا، ناسياً زوجته اليهودية. وهناك كافح حتى أصبح أستاذاً في الجامعة، ونال لقب "سير" وتزوج نصرانية.

أما جده لأمه فكان صيرفيًّا ثريًّا، فكان ليوبولد يذهب في أشهر الصيف إلى مزرعته ليلهو بين أشجار الصفصاف، وجداول الماء، والأبقار الوديعة، وشرب اللبن الدافئ من ضروع الأبقار، ومداعبة الأطفال والفتيات العاملات.

وكان له أخ وأخت، وأبناء عمومة كثيرون، وكانوا يقومون برحلات على الأقدام، فكانت حياته سعيدة مُرضية إلى حد بعيد.

وكان أبوه يرغب أن يدرس الرياضيات، لكنه لم يستطع تحقيق أمنيته، فأراد لابنه ليوبولد أن يحقق له حلمه القديم، لكنه خذله، وراح يقرأ كتب التاريخ والفلسفة والآداب البولندية والألمانية.

وبحسب تقاليد الأسرة درس ليوبولد العلوم الدينية العبرانيَّة بتعمق كبير، على أيدي أساتذة خصوصيين. ولم يكن ذلك بسبب ورع زائد لدى والديه، اللذان كانا يخضعان للمعتقدات الدينية باللسان فقط. ولم يحاول والده قط أن يعمل

(١) الطريق إلى الإسلام؛ ص ٦٤–٨٠ .

بمقتضى تلك العقائد والتعاليم. ذلك أن الدين في ذلك الوقت كان قد فقَدَ مكانته فلم يعُد يعني إلا: الطقوس المتحجرة عند البعض، والخرافات عند آخرين؛ ومن ثم لا يمكن أن يُدَافَع عنه عقليًا.

درس ليوبولد الكتب المقدسة بضغط أبيه مجاملة لجده، حتى أجاد اللغة العبرانية وتكلمها بطلاقة، إلى جانب الإحاطة بالآرامية، وهذا هو ما يسَّر له تعلم اللغة العربية فيما بعد.

لكن ليوبولد كان يصبو إلى العمل والمغامرة. ولذلك ترك المدرسة والتحق بالجيش النمساوي وسنّه ١٤ عامًا. وكان سن التجنيد القانوني ١٨ عامًا، فاتخذ لنفسه اسماً مزورًا، واعتمد على طوله الفارع ليقنع إدارة التجنيد بأنه بلغ الثامنة عشرة. وهكذا جُند في الجيش. لكن أكاذيبه اكتُشفت، فأُرسل مخفوراً إلى اسرته. وبعد أربع سنوات جُند فعلاً. لكن الثورة اندلعت بعد ذلك بحوالي شهر وسقطت الإمبراطورية النمساوية، فترك الجيش، لأنه لم يعد هناك جيش!

بعد ذلك حاول دراسة تاريخ الفنون والفلسفة في جامعة فيينا، لكنه لم يحقق شيئًا، فاتجه إلى الصحافة، وهو لا يملك أية خبرات! وفي برلين نفدت نقوده، وأخذ يتسكع، جائعاً، بحثًا عن عمل، وفي الوقت نفسه كان يكتب إلى والده -كَذباً!- أنه التحق بوظيفة ممتازة، ردًّا على توقعات أبيه الساخرة بأن نهايته المأساوية ستكون حفرة على جانب الطريق، في مقبرة لائقة بأفّاق!

وأخيراً ساعده صديق ليعمل "عامل تليفون" في وكالة صحافية جديدة اسمها "يونايتد تليغراف". وكان عمله نقل الأخبار إلى صحف المقاطعات. وهو عمل ممل وتافه.

وفي سنة ١٩٢١ ساعده صديق آخر على مقابلة "السيدة غوركي" زوجة مكسيم غوركي، وأخذ منها حديثاً، كان له وقع القنبلة في الأوساط الصحفية. ورُقّي ليوبولد إلى وظيفة مخبر صحفي مكافأة له على ذلك.

وذات يوم من ربيع سنة ١٩٢٢ جاءته رسالة من خاله "دوريان" -الذي كان يرأس مستشفى للأمراض العقلية في القدس، يدعوه فيها إلى زيارته والإقامة معه لمدة ستة أشهر، على حسابه، بما في ذلك تذاكر السفر. وهكذا قُدِّر له أن يرى المسلمين في بلادهم، وأتيح له الوقت ليتامل أحوالهم؛ وكانت الإسكندرية أول مدينة رآها، وكان ريف مصر وصحاريها أول ما رأته عيناه عبر نافذة القطار، وكانت مدينة القدس أول دار إقامة له في ديار المسلمين.

وفي النصف الثاني من سنة ١٩٢٦م، انشغل ليوبولد فايس بمسألة الإسلام. كان اهتمامه بالإسلام في بادئ الأمر ليس سوى اهتمام عقلي بثقافة غريبة، ثم صار "بحثاً عاطفيًا حارًا عن الحقيقة". كان يشعر بأنه منساق إلى الإسلام، لكنه تردد. فأجَّل خطوته النهائية: "لقد كانت فكرة اعتناق الإسلام شبيهة بالمغامرة في اقتحام جسر يصل فوق هوة بين عالمين مختلفين .. فيقول: "وكنت أدرك جيداً أنني لو أصبحت مسلماً، إذن لكان يتعيَّن عليّ أن أقطع كل صلة لي بالعالم الذي نشأت فيه."(١)

بل ذلك العالم هو الذي سيقطع كل صلة له به! وأهله أول القاطعين!

والظاهر أنه كان لا يزال يتساءل: هل الإسلام رسالة من عند الله، أو مجرد حكمة من رجل عظيم؟ وهذا التساؤل ردده المستشرقون الأوربيون والأمريكيون، وأكدوا أن الإسلام من اختراع محمد وليس تنزيلاً من السماء. ويبدو أسد هنا متأثرًا بمزاعم أولئك المستشرقين.(٢)

لكنه استطاع أن يتحرر من تلك الشكوك، وقال: "لقد عرفت الآن – بصورة لا تقبل الجدل- أن الكتاب الذي كنت ممسكًا به (يعني المصحف الشريف) كان كتابًا مُوحَى من الله."

---

(١) الطريق إلى الإسلام؛ ص ٢٥١ .

(٢) راجع كتاب محمد قطب؛ المستشرقون والإسلام؛ ص ٢٠٤؛ مكتبة وهبة؛ سنة ١٤٢٠- ١٩٩٩م.

وفي خريف السنة السابقة، أي سنة ١٩٢٥، وكان يومئذ يزور جبال أفغانستان، قال له حاكم إداري شاب؛ إنك مسلم، غير أنك لا تعرف ذلك من نفسك" . وتأثر ليوبولد فايس بكلمات الشاب الأفغاني، لكنه صَمَت. ولما عاد إلى أوربا مرة ثانية سنة ١٩٢٦: "وجدت أن النتيجة المنطقية لميلي إلى الإسلام أن أعتنقه".(١)

ثم جاءت اللحظة الحاسمة. فذهب إلى صديق هندي مسلم، كان رئيساً للجالية الإسلامية الصغيرة في برلين، وأعلمه برغبته في اعتناق الإسلام. وفي حضور شاهدين نطق بالشهادتين. وعندئذ قال صديقه المسلم: لقد كان اسمك حتى الآن ليوبولد Leopold، وكلمة ليو اليونانية معناها أسد. إذن سندعوك من الآن فصاعداً: محمد أسد.(٢)

ولم يرض أهله عن إسلامه. وهذا طبيعي. وحين أنبأ والده بإسلامه في رسالة إليه لم يرد عليه. وبعد بضعة أشهر كَتَبَتْ أختُه رسالة قالت له فيها إن والده اعتبره في عداد الأموات. وكتب أسد إلى والده رسالة أخرى بيَّن له فيها أن حبه واحترامه له لم يتبدل، وأن الإسلام يوصي ببر الوالدين مع اختلاف الدين، لكن الأب لاذ بالصمت ولم يرد عليه.

وغادر أسد أوربا بعد ذلك، فلم ير والده بعدها أبداً. لكنه أعاد علاقته به سنة ١٩٣٥، وظل يبادله الرسائل حتى سنة ١٩٤٣م حيث مات أبوه في أحد معسكرات النازي.

ولم يدخر أسد وسعاً في سبيل التعرف على الإسلام، الدين الذي أنشأ أمة رآها أسد في غاية النبل، في تصرفات عديدة تنم عن الإنسانية والغيرية التي لا تشوبها الأنانية التي تسود في الغرب. فماذا وراء السلوك النبيل لدى هؤلاء القوم؟ تساءل أسد باستمرار هذا التساؤل.

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق؛ ص ١٤ .

(٢) الطريق إلى الإسلام؛ ص ٢٤٨، ٢٤٩

لا بد من تعلم لغتهم، لدراسة دينهم، وبواعثهم. وفي عام ١٩٢٤ جاء أسد إلى القاهرة في رحلته الثانية وعيناه مفتوحتان على كل شيء. وانتهز الفرصة فاتفق مع طالب أزهري لكي يعطيه دروساً في العربية. وبذلك شعر بأنه سيملك مفاتيح التفكير الإسلامي.(١)

وكان أسد قد تعرف على امرأة ألمانية جميلة تدعى ألْسَا قبل رحلته الأولى إلى الشرق. وأحب أسد تلك المرأة حبًّا عظيمًا، ولذلك لم تنسه سنتان من الغيبة عن أوربا حبه لها، بل زادته قوة. وكانت ألْسَا تكبره بأربعة عشر عامًا، ولذلك ترددت في قبول الزواج منه حين فاتحها فيه. كانت هي في الأربعين وكان هو في السادسة والعشرين. وكان لها ولد من زوج سابق، وكانت تحب ولدها وتحرص على سعادته. لكن الحبيب العاشق بدد كل مخاوفها، فقبلت الزواج.

وكانت ألسا تقدّر اهتمامات أسد بالإسلام. وهو يصف ذلك فيقول: "كنا كثيراً ما نجلس فنقرأ ترجمة للقرآن معًا، ونناقش تعاليمه. وأصبحت ألسا – شأني أنا– أكثر تأثرًا مع الوقت بذلك الالتئام الباطني بين تعاليمه الأخلاقية وتوجهاته العلمية."(٢)

وأسلمت ألسا وأنجبت له ولداً سمياه أحمداً، وسافرت معه سنة ١٩٢٧ لأداء فريضة الحج، ومعهما ابنهما. وفي مكة المكرمة أصابها مرض غامض، فماتت ودُفنت بمقبرة مكة الرملية، ووضع حجر فوق قبرها. وبقي "أحمد" الصغير معه، أكثر من سنة، وصحبه في أول رحلة له إلى داخلية جزيرة العرب: "فكان رفيقاً بطلاً في السادسة من عمره، إلا أنه كان عليّ أن أودِّعه أيضاً بعد مُضي وقت قصير، ذلك أن عائلة أمه أقنعتني أخيراً بوجوب إرساله إلى مدرسة في أوربا."(٣)

---

(١) نفسه؛ ص ١٩٥ .
(٢) الطريق إلى الإسلام؛ ص ٢٤٢ .
(٣) نفسه؛ ص ٢٨٧-٣٠٨ .

ولم يعد أسد يذكر ولده ذاك، مع أن الظروف التي أحاطت به تثير المخاوف. فهل يا ترى بقي أحمد على دينه الإسلامي أم أن أخواله هوّدوه؟

وعاش أسد حوالي ست سنوات في المدينة المنورة، وأثث لنفسه بيتاً. وتزوج امرأة عربية؛ وقد رزقه الله منها بصبي سماه "طلالاً". وبدأ يشعر بأن العرب قد صاروا أصهاره، علاوة على كونهم إخوانه في الإسلام. وكانت هذه الظروف كفيلة بأن تشده إلى الأسرة، والاستقرار، لكنه واصل التجوال والمغامرات! وكان ذلك من أغرب التصرفات. ومن المرجح أن الولد - طلال - ذهب مع أمه إلى أخواله. ولم يذكره أسد بعد ذلك، مثله مثل أخيه أحمد ولم يبين مصير زوجته الثانية.

وتزوج أسد الزوجة الثالثة في المدينة المنورة. وتلك قصة طريفة، فقد فوجئ بأن العروس طفلة صغيرة في الحادية عشرة من عمرها، فطلقها دون أن يمسها.[1]

* * *

(١) نفسه؛ ص ١٥٨ - ١٦٣

قوى الطرد الدينية والحضارية

● قوة الطرد

لا يترك الإنسان دينه ودين آبائه إلا بعد تعرضه لقلاقل روحية، وقوى طرد، وقوى جذب مؤثرة، شديدة. فتغيير الدين تجربة قاسية، عسيرة. فما الذي حمل ليوبولد فايس على نبذ اليهودية واعتناق الإسلام؟

يجيب ليوبولد على هذا السؤال فيقول إنه: "على الرغم من كل هذه المعرفة الدينية (التي حصلها عن اليهودية) أو لعله بسببها، سريعاً ما نَمَا فيَّ شعور بالاستعلاء والشموخ نحو كثير من مقدمات المعتقد اليهودي. مؤكد أنني كنت أوافق على مبدأ الصلاح الخلقي المؤكد عليه بقوة في كل موضع في الكتب الدينية اليهودية، وعلى وَعْي أنبياء اليهود لله وَعْياً رفيعاً. ولكن كان يبدو لي أن الله الذي يمثله العهد القديم والتلمود، كان مهتمًّا بأكثر مما ينبغي بالطقوس التي كان مفروضاً في عباده أن يعبدوه بواسطتها. كذلك خطر لي أن هذا الإله كان مشتغل البال - بصورة غريبة - بمصائر أمة واحدة معينة، أعني العبرانيين. إن تكوين العهد القديم نفسه كتاريخ لأحفاد إبراهيم كان يميل إلى أن يجعل الله يبدو لا كخالق للناس أجمعين وربّهم، ولكن كإله قَبَلي يكيف الخلق كله حسب حاجات شعب مختار: يكافئهم بالفتوح إذا كانوا صالحين، ويعذبهم على أيدي الكَفَرة كلما انحرفوا عن الطريق المفروض عليهم سلوكه. ففي ضوء هذه النقائص الأساسية، حتى ذلك الحماس الروحي للأنبياء المتأخرين - من مثل أشعيا وأرميا - بدا مجرداً من رسالة عالمية."(١)

فرفض اليهودية ليس بسبب جهله بل بسبب معرفته الدقيقة بها. لقد طردت

---

(١) الطريق إلى الإسلام؛ ص ٦٨ - ٨٩

المعتقدات اليهودية ليوبولد من عالمها، لأنها تصور الله تعالى كشيخ قبيلة، لا كخالق لكل البشر. وهذا مأخذ خطير يهدم أي دين. وقد وجدنا قوة الطرد والتنفير نفسها لدى مريم جميلة ومراد هوفمان (في الفصلين الثاني والثالث من هذه الدراسة).

وإذا أردنا مثالاً معبراً عن صورة ذلك الإله القَبَلي - إله اليهود وحدهم - فإننا نجده في قصة سقوط أريحا في "يشوع" في التوراة. فقد حاصر الإسرائيليون أريحا. وجاءت أوامر الرب ليشوع قائلاً: "ها أنا قد أخضعتُ لك أريحا وملكها ومحاربيها الأشداء." وطبقاً لأوامر الرب دار الشعب حول السور، ونفخوا في الأبواق، فانْهَار السورُ، واستولوا عليها: "ودمروا المدينة وقضوا بحد السيف على كل من فيها من رجال ونساء وأطفال وشيوخ، حتى البقر والغنم والحمير."(١)

ويظن اليهود أن هذه الأفكار تزيد من تمسك أبنائهم بدينهم، لكن اليهود المثقفين ذوي الأرواح القلقة، والعقليات الناضجة، يشمئزون من تلك المجازر البشرية. وليوبولد فايس واحد من عشرات المفكرين اليهود الذين نبذوا اليهودية، بتأثير عوامل الطرد فيها. إنها خرافات لا يطيقها مثقف حر.

وما نراه اليوم من مجازر ضد الفلسطينيين ليس جديداً على اليهود؛ إنه تقليد قديم مارسوه بمساعدة الإله القَبَلي الخاص بهم!

ولقد أراد والده أن يعمق اليهودية في قلبه فأحضر له المدرسين الخصوصيين إلى بيته. فيعلق محمد أسد على ذلك بقوله: "ولكن على الرغم من أن تأثير تلك الدراسات المبكرة التي قمت بها كان عكس ما قُصد بها، إذْ أنها أبعدتني عن دين آبائي وأجدادي، بدلاً من أن تقربني منه .. إلا أن خيبة الأمل التي أصابتني في ذلك الحين باليهودية لم تؤد بي إلى أن أبحث عن الحقائق الروحية في جهات أخرى ... ولما كان ديني لم يَعْنِ مطلقاً بالنسبة إليّ اكثر من سلسلة من الأنظمة والأصول التقليدية، فإني لم أشعر بأي ضَيْر من جراء انجرافي بعيداً عنه. ولم تكن المسائل الدينية

---

(١) يشوع -٦ - رقم ٢١ .

والفلسفية قد أثارت اهتمامي بعدُ، ذلك أن ما كنتُ أتطلع إليه مثل معظم الصبية الآخرين: العمل والمغامرة وكل ما يثير النفس؟"(١)

كانت تلك الدراسات فاشلة دينيًا وتربويًا. إنها لم تفلح في تكوين التوجهات الدينية لدى "ليوبولد"، ولا هي دفعته إلى البحث عن الحقائق الروحية في الفلسفة أو الأدب، وبدت اليهودية له كمجموعة من القيود، فسيطرت عليه الرغبة في العمل والمغامرات. ولا شك أن البيئة الأسرية والمناخ الثقافي العام كان لهما تأثيرهما في إبعاد ليوبولد عن دينه، وقد عرفنا أن والديه لم يكونا متدينين. وإشارات كثيرة وردت على لسان ليوبولد تصور البيئة الثقافية العامة في الربع الأول من القرن العشرين في النمسا على أنها كانت قد ابتعدت عن الأديان. من ذلك قوله: "إن حيرتي -كي أكون منصفاً لنفسي- لم تكن من صنع يدي، ذلك أنها كانت حيرة جيل بأسره."(٢) لكن درجات الحيرة تباينت بتباين الأفراد ومدى سيطرة القلق الروحي عليهم. وقوله: "لقد تميزت العقود الأولى من القرن العشرين بالفراغ الروحي. لقد أصبحت جميع القيم الأخلاقية والروحية التي ألِفتْها أوربا عدة قرون مائعة، وذلك بفعل الفظائع التي حدثت ما بين عام ١٩١٤ وعام ١٩١٨."(٣) وهي فظائع الحرب العالمية الأولى التي راح ضحيتها ١٣ مليون قتيل من النساء والأطفال والشيوخ.(٤) ناهيك عن أعداد القتلى من العسكريين!

ويرد ليوبولد فقدان القيم الأخلاقية إلى فشل رجال الدين التقليديين، فإنهم: "لم يعرفوا شيئاً أفضل من أن يعزوا إلى (إلههم) صفات مقتبسة من عاداتهم الخاصة في التفكير ... وعندما رأينا نحن الشباب أن هذه الصفات الإلهية المزعومة كثيراً ما كانت تتناقض إلى أبعد الحدود مع ما كان يجري في العالم من حولنا، كنا نقول لأنفسنا: "إن القوى الدافعة للقضاء والقدر تختلف بصورة جلية واضحة عن الصفات المعزوّة إلى الله. وإذن فإن الله غير موجود."(٥)

---

(١) الطريق إلى الإسلام؛ ص ٦٩ .
(٢) نفسه؛ ص ٧٠ .
(٣) الموضع نفسه.
(٤) Brzezinski; Out of Control; p.9
(٥) الطريق إلى الإسلام؛ ص ٧٠ .

ويجد أسد مبادئ منفّرة في الحضارة الغربية الحديثة. وأول ذلك التوجه البراجماتي، النفعي، الذي يجعل الانتفاع المادي على قمة المدرج القيمي. وهكذا صارت المعارف وسيلة إلى تلك الغاية. وتقدمت الاكتشافات لأسرار الحياة، والقوى الكامنة في الطبيعة. أما قضية معنى الحياة والغاية منها فقد أهملت منذ زمن بعيد، ولم تعد لها أهمية لدى الأوربيين المحدثين. ولم يعد هناك مجال للأخلاق الغيرية، بل أدان البعض توجه المسيحية إلى مساعدة الضعفاء؛ وأقصد بذلك " نيتشه " خاصة.

ويرى أسد أن: "كل ما هو اليوم حقيقي في الاستشراف الغربي للحياة والأخلاق يرجع إلى المدنية الرومانية. وكما أن الجو الفكري والاجتماعي في رومة القديمة كان نفعيًا بحتًا ولا دينيا - لا على الافتراض بل على الحقيقة - فكذلك هو الجو في الغرب الحديث ... إن المدنية الغربية لا تجحد الله ألبتة، ولكنها لا ترى مجالاً ولا فائدة لله في نظامها الفكري الحالي."(١)

لقد تركتْ أوربا المسيحية واتّخذَت ديناً جديداً، معابده: "المصانع الجبارة ودور العرض السينمائية والمختبرات وقاعات الرقص والمشاريع المائية والكهربائية وكُهّانه الصرافون والمهندسون والسياسيون ونجوم السينما، والإحصائيون وزعماء الصناعة والطيارون و"نواب الشعب". وكانت الخيبة الروحية متجلية في الفقدان الشامل للاتفاق على معنى الخير والشر، وفي إخضاع الأحداث الاجتماعية والاقتصادية جميعاً إلى قاعدة "المصلحة "- تلك المرأة الداعرة، الراغبة في أي إنسان، وفي أي وقت، كلما دُعيت إلى الاستسلام .. وذلك الحنين الشره إلى السلطة واللذة. لقد أدى هذا - بالضرورة - إلى انقسام المجتمع الغربي إلى فئات متخاصمة مسلحة حتى أسنانها، مصممة على أن يسحق بعضُها بعضاً حيثما تضاربت مصالحها وأهواؤها."(٢)

دين وثني جديد، ليس له كتاب مقدس يحدد القيم ويبين الخير والشر؛ فصارت "المصلحة " هي القيمة العليا. وتضاربت "المصالح"، فاندلعت الحروب التي سحقت ١٧٠ مليون إنسان على امتداد القرن العشرين.(٣)

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق؛ ص ٣٩ . (٢) الطريق إلى الإسلام؛ ص ٨٤ .

(٣) راجع إحصاءات برزسكي في كتابه Out of Control; p.18 .

القلق الروحي

● ما الخير والشر ؟

كانت الأسئلة الفلسفية تهجم على عقل ليوبولد فايس في كل وقت. فقد كان يسير في شوارع برلين وجيوبه خاوية، ويتساءل: "كيف يمكن أن يصاغ المجتمع بحيث يستطيع الناس أن يعيشوا في صلاح وبحبوحة ؟ كيف يجب أن تسوي علاقاتهم بحيث يستطيعون أن يخترقوا العزلة التي كانت تحيط بكل إنسان، وأن يحيوا حياة مشتركة صحيحة ؟ ما هو الخير وما هو الشر؟ ما هو القضاء والقدر؟ أو - بعبارة أخرى - ماذا يجب على المرء أن يفعل كي يصبح حقيقة، لا من حيث المظاهر فحسب، متماثلاً مع حياته نفسها، بحيث يمكنه القول: "أنا ومصيري وحدة لا تتجزأ."(١)

هكذا كان يقلقه اضطراب مجتمعه في تلك الفترة بعد الحرب العالمية الأولى. وكانت تقلقه كسائر الأوربيين المجازر الدامية التي اندلعت في أوربا، وكل طرف يدعي أنه صاحب الحق وأن الآخر مبطل وشريرا وكان يقلقه ما يجب عليه كفرد أن يصنع لإصلاح المجتمع.

ولا شك ان هذه المشاغل الكبرى لا يعرفها البلداء ولا يعانيها أهل اللذات الغارقون في الماديات. فقط تلك الأرواح اليقظة، القلقة المستنيرة، هي التي تنشغل بها، كما كان حال ليوبولد فايس منذ مطلع سنوات شبابه. لقد تراجع الدِّين أو اختفى، وعرف الناس ديناً جديداً وحيداً هو: عبادة التقدم المادي. وكان ذلك كله مصدر قلق روحي عظيم لذلك الشاب اليافع.

---

(١) الطريق إلى الإسلام؛ ص ٨٣ .

التفكير في بئر !

كانت موجات القلق الروحي تغرقه في كل مكان. فذات يوم نزل احد الآبار في الجزيرة العربية ليستحم، فغمرته موجة من القلق وأخذ يحدث نفسه فيقول: "لقد خَرَجْتَ - من أوربا - لاستبدال عالم بآخر - لتفوز لنفسك بعالم جديد، عوضاً عن عالم قديم لم تملكه في الحقيقة قط. وعرفتُ بوضوح عجيب أن مثل هذه المهمة يمكن في الحقيقة أن يستغرق عمراً باكمله."(١) وبعد ذلك بقليل يقول: "وفجأة كان عليّ أن أضحك بصوت عالٍ ضحكة السرور والحرية .. ذلك أنني قد عرفت الآن كم كان طريقي، على الرغم من إغراقه في الطول، بسيطاً مستقيماً -طريقي من عالم لم أملكه، إلى آخر كان في الحقيقة عالمي الخاص."(٢)

بهذا يُعبِّر عن انفصاله الروحي عن عالم الغرب الذي ولد فيه ولم يستطع أن يقبله ثقافيًا أو حضاريًا، وعن أشواقه إلى العثور على عالم آخر يشبع نَهَمَه الروحي ويجيب على أسئلة الوجود الكبرى.

وبعد قليل يعيد التعبير عن بواعثه الباطنة في نفسه، تلك التي أخرجته من بلاده في تطواف بالغ الطول فكريًّا وواقعيًّا، فيقول: "إن معنى تطوافي كله إنما هو كائن في رغبة خبيئة في نفسي في لقاء عالم نظرته إلى مسائل الحياة الصميمة، إلى الحقيقة نفسها، تختلف عن كل ما ألِفْتُه في طفولتي."(٣)

إنه ليس سائحاً يتفرج على معالم الجزيرة العربية وآثار الحضارات الشرقية، ولا هو تاجر يبحث عن الأرباح والكنوز، ولكنه فيلسوف ينشد إجابات عن أسئلة الحياة والموت، تلك الأسئلة الكبرى المضنية التي طرَحَتْ نفسها على عقله منذ كان صبيًّا يحشون عقله بأقوال الحاخامات في بيت أبيه.

---

(١) الطريق إلى الإسلام؛ ص ٦١ .

(٢) نفسه؛ ص ٦٢ .

(٣) نفسه؛ ص ٦٣ .

ويذكر أسد أن "الحنين إلى أن يجد مستقره في هذا العالم" .. "الحنين إلى اكتشاف الذات" هو الذي ساقه، عبر السنين، إلى الإسلام، "إلى عالم يختلف تمام الاختلاف، من حيث أحاسيسه وأشكاله الخارجية – معاً – عن كل مصير رَسَمتْه لي ولادتي ونشأتي الأوربيتان."(١)

هذا هو القلق الروحي الذي يعد وجوده شرطاً ضروريًا للانتقال من دين إلى دين، نلاحظه في حالة محمد أسد، كما سنلاحظه عند مريم جميلة وهوفمان، وغيرهما من المفكرين المهتدين إلى الإسلام. وبطبيعة الحال، هذا القلق لا تعانيه إلا الروح النقية الذكية التي لا تتوقف عند المظهريات والقشور.

وبعد أن اعتنق الإسلام عبَّر عن قلقه القديم فقال: "لقد تحققتْ أخيراً رغبتي أيام صباي: أن أنتمي إلى مدار معين من الفكرات والآراء، أن أكون جزءاً من أمة مؤلفة من إخوة ".(٢)

هنا يبدو نفوره من الفردانية والأنانية السائدة في الغرب، وهو نفور متجذر في نفسه منذ الطفولة، كما تبدو سعادته بالحياة وسط المسلمين الذين يعتبرون أنفسهم إخوة، كما قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] ومن المؤسف أن هذه الأخوة أخذت تشحب وتضمحل بيننا وأن الأنانية أخذت تفشو وتتحكم فينا، بسبب ابتعادنا نحن المسلمين عن ديننا، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

* * *

---

(١) الطريق إلى الإسلام؛ ص ٣٦، ٣٧ .

(٢) نفسه؛ ص ٢٨٧ .

جاذبية الإسلام والمسلمين

جاذبية الإسلام ككيان مؤتلف

تعرض المهتدي محمد أسد لعوامل الجذب من جهة وعوامل الطرد من جهة أخرى. فهو يصف جاذبية الإسلام فيقول: إن الإيمان الإسلامي قد غمر نفسه خلال السنين: "دون أية محاولة من قِبَلي لإيجاده".

ويصف انتقاله من اليهودية إلى الإسلام بأنه: "كان يدل على انتقال واعٍ من صميم القلب من بيئة ثقافية إلى أخرى تختلف تمام الاختلاف."(١)

وقد سئل صراحة: لماذا اعتنقت الإسلام؟ وما الذي جذبك منه خاصة ؟ فقال:

"يجب ان أعترف بأنني لا أعرف جواباً شافياً. لم يكن الذي جذبني تعليماً خاصًّا من التعاليم، بل ذلك البناء المجموع العجيب والمتراص بما لا تستطيع له تفسيراً من تلك التعاليم الأخلاقية، بالإضافة إلى منهاج الحياة العملية. ولا أستطيع اليوم أن أقول أي النواحي قد استهوتني أكثر من غيرها، فإن الإسلام، على ما يبدو لي، بناء تام الصنعة، وكل أجزائه قد صيغت ليتمم بعضها بعضاً ويشد بعضها بعضاً، فليس هناك شيء لا حاجة إليه، وليس هناك نقص في شيء، فنتج عن ذلك كله ائتلاف متزن مرصوص. ولعل هذا الشعور بأن جميع ما في الإسلام من تعاليم وفرائض قد وُضعت مواضعها، هو الذي كان له أقوى الأثر في نفسي."(٢)

بناء كامل

وفي موضع آخر يعبر عن هذه الحقيقة الكلية فيزيدها وضوحاً. فهو يقول: "لقد أخَذت الآن صورة تامة للإسلام تظهر لي بطريقة نهائية حاسمة أذهلتني أحياناً.

---

(١) الطريق إلى مكة؛ ص ١٤.

(٢) الإسلام على مفترق الطرق؛ ص ١٥.

لقد كانت تتجسد بعملية يمكن أن توصف بأنها نوع من الانتضاح أو الارتشاح العقلي، دون أي جهد واعٍ من قِبَلي لأن اجمع معاً - أو أنسق - العديد من جزئيات المعرفة التي اعترضت طريقي في السنوات الأربع الماضية. لقد رأيت أمامي شيئاً يشبه بناءً هندسيًّا كاملاً، تتمم عناصره بعضها بعضاً بطريقة متناغمة، لا نافل فيه (يعني لا زائد عن الحاجة)، ولا ناقص، بل اتزان وسكينة يضيفان على المرء (المؤمن) شعوراً بأن كل ما في نظرات الإسلام وفروضه هو " في محله".(١)

فالذي أذهله ليس مجرد جانب في العقائد أو العبادات أو الأخلاق الإسلامية، بل مجموع العقائد والعبادات والأخلاقيات، في اتحادها وتناغمها في كيان واحد، بلا زيادة أو نقصان. وإزاء هذه الحقيقة الكلية التي بدت له دون أية محاولة من جانبه لتركيب عناصرها أو تنسيقها أو ترتيبها، شعر بأنه أدرك ضالته التي ظل ينشدها سنوات طوالاً، والتي من أجلها ترك وطنه ودينه الموروث، والنجاح الباهر في عالم الصحافة.

ونحن أبناء الإسلام الذين وُلدوا عليه وتربوا في ظلاله، وأنفقوا الأعمار، دراسةً وبحثاً، والتزاماً عمليًّا، لم ندرك الصورة الباهرة التي برزت أمام عقل محمد أسد العبقري، رحمه الله وجعل الجنة مثواه.

وأظن والله أعلم أن أسداً قد قرأ قول الله تعالى ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] وأدرك معنى الكمال والتمام في هذه الآية الكريمة.

اتحاد الحياة الروحية والمادية

وسوف يضيف أسد الكثير من عناصر الجذب التي أدخلته في عالم الإسلام. وأسد مبهور بتوفيق الإسلام بين الوجهتين الروحية والمادية: "فالإسلام ليس عقيدة

(١) الطريق على الإسلام؛ ص ٢٤٢ .

صوفية، ولا هو فلسفة، ولكنه نهج من الحياة حسب قوانين الطبيعة التي سنَّها الله لخلْقه، وما عمله الأسمى سوى التوفيق التام بين الوجهتين الروحية والمادية في الحياة الإنسانية. وإنك لترى هاتين الوجهتين في تعاليم الإسلام تتفقان في أنهما لا تدعان تناقضاً أساسيًّا بين حياة الإنسان الجسدية وحياته الأخلاقية فحسب، ولكن تلازمهما هذا وعدم افتراقهما فعلاً أمر يؤكده الإسلام، إذْ يراه الأساس الطبيعي للحياة."(١)

وقد لا ينبهر المسلم الذي نشأ على الإسلام إزاء الوحدة بين الوجهتين الروحية والمادية في الإسلام، وهو يقرأ قول الله تعالى ﴿ ... رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١] فهذه الوحدة بدهية عند المسلمين. لكن الذي قرأ في إنجيل لوقا: "لا يقدر خادم أن يخدم سيدين" و "لا تقدرون أن تخدموا الله والمال" (٢) لا بد أن ينبهر بهذا المبدأ الإسلامي العظيم. وأسد كان يهوديًّا، وإنجيل لوقا ليس كتابه المقدس، لكن الأرجح أنه قرأه. والتوراة يغلب عليها الجانب المادي والدنيوي. وهي تنكر الحياة بعد الموت، وتقول بالنص: "١٠ أما الإنسان فيموت ويبلى، يلفظ آخر أنفاسه فأين هو؟ ١١ كما تنفد المياه من البحيرة ويجف النهر، ١٢ هكذا يرقد الإنسان ولا يقوم، ولا يستيقظ من نومه إلى أن تزول السماوات."(٣) فلا يبقى أمام أتباعها إلا الدنيا ولذاتها المادية.

مفهوم العبادة

وينجذب أسد إلى الإسلام بسبب مفهوم العبادة فيه. فهو يقول: "يختلف مفهوم العبادة في الإسلام عما هو في كل دين آخر: إن العبادة في الإسلام ليست محصورة في أعمال من الخشوع الخالص كالصلوات والصيام مثلاً، ولكنها تشمل

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق؛ ص ٢٢ .
(٢) إنجيل لوقا؛ ١٦-١٣ .
(٣) ايوب - ١٤ ، ١٠- ١٢ .

كل حياة الإنسان العملية أيضاً. وإذا كانت الغاية من حياتنا على العموم عبادة الله، فيلزمنا حينئذ ضرورة أن ننظر إلى هذه الحياة، في مجموع مظاهرها كلها، على أنها تبعة أخلاقية متعددة النواحي. وهكذا يجب أن تأتي أعمالنا كلها، حتى تلك التي تبدو تافهة، على أنها عبادات، أي نأتيها بوعي، وعلى أنها تؤلف جزءاً من ذلك المنهاج العالمي الذي أبدعه الله."(١)

ذلك أن الإسلام يعطي النية قدرها، كما يعطي العمل قدره. فإذا أمر الله تعالى عباده وقال ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ [الملك: ١٥]، وأطاعَ العبادُ أمره، كان لهم ثواب الطاعة. فإذا قيل: ولكنهم أرادوا الكسب الدنيوي، قلنا: ولهم كسب ثواب الطاعة، أيضاً. وهذا من فضل الله الواسع، لا استحقاقاً على العمل.

النظافة والطهارة

ويقارن أسد بين نظافة المسلمين كأفراد وكمجتمعات، فيذكر أنه "في الزمن الذي كان الاستحمام يعتبر – حتى في نظر ملوك المسيحية وأشرافها – نعيماً ورفاهاً يكاد يكون شائناً معيباً، كان في بيوت المسلمين – حتى أفقرهم – غرفة استحمام واحدة على الأقل، بينما كانت الحمامات العامة المتقنة شيئاً عادياً في كل مدينة إسلامية (في القرن التاسع مثلاً، كان في قرطبة ثلاثمائة منها) وكل ذلك استجابة لقول النبي ﷺ: "النظافة من الإيمان". ولم يجد المسلم تعارضاً مع مطالب الحياة الروحية إذا ما استمتع بجمال الحياة المادية."(٢)

والحق أن الحياة الروحية ذاتها، وبخاصة الصلاة، مشروطة بالطهارة: طهارة البدن وطهارة اللباس وطهارة المكان.

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق؛ ص ٣٣ .
(٢) الطريق إلى الإسلام؛ ص ١٩٤، ١٩٥ .

الإنسان خَيِّر بفطرته

وجذبته إلى الإسلام أيضاً نظرته إلى الإنسان على أنه خَيِّر بفطرته. ويعلم أسد أن المسيحية تعتقد بما يسمى الخطيئة الأولى التي اقترفها آدم عليه السلام، وورثها أبناؤه من البشر. يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ [التين: ٤-٦] فالإنسان يملك نفسه ويقرر كيف يكون، وأمامه أن يرتفع إلى أعلى عليين أو يهبط إلى أسفل سافلين.

وهكذا يؤكد الإسلام المبدأ الأساسي لمسئولية الفرد أمام الله وأمام إخوانه من البشر: مبدأ فردانية المسئولية، ويلغي المبدأ الخاطئ الذي يحمِّل البشر خطيئة أبيهم آدم عليه السلام.

المسيحية تضع عقيدة الخطيئة الأولى في صلب عقائدها وتبني عليه مبدأ الخلاص والمخلص والصليب. وفي الإسلام ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ** ﴾ [المدثر: ٣٨] ﴿ **وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** ﴾ [الأنعام: ١٦٤] وشتان بين هذا وذاك.

اللقاء الأول مع مسلم

كان للسلوك الطيب الودود الذي لقيه ليوبولد فايس ممن قابلوه من المسلمين أثر كبير على جذبه إلى الإسلام.

ويحكي ليوبولد عن أول أنموذج مسلم صادفه في عربة القطار في الطريق من رفح إلى غزة، في طريقه إلى القدس لزيارة خاله، فيقول: إن رجلاً عربيًّا نهض وفتح الشباك، وابتاع قطعة من الكعك: "ثم استدار على وشك الجلوس، عندما وَقَعَتْ عَيْناه عليَّ، ودون أن ينطق بكلمة، قسَّم كعكته إلى نصفيْن، وقدَّم إليَّ أحدهما. وعندما رأى ترددي ودهشتي، ابتسم .. وقال كلمة لم أفهمها عندئذ، ولكني أعرفها الآن: تفضَّل. وأخَذْتُ قطعة الكعك وشكرته بإيماءة من رأسي." وتطوع

للترجمة مسافر كان يرتدي الثياب الأوربية، فقال: إنه يقول إنك مسافر، وإنه مسافر، وطريقكما واحدة. ويعلق ليوبولد فايس قائلاً: "وعندما أفكر الآن بذلك الحادث البسيط، يخيَّل إليّ أن حُبي كله للخُلُق العربي فيما بعد، قد تأثر به. ذلك أن في بادرة هذا البدوي الذي شعر -على الرغم من جميع حواجز الغربة- بصداقة رفيق عابر له في السفر، فقاسمه الخبز، نفحة من الإنسانية أحسست بها خالية من أي تصنُّع أو تكلُّف."(١)

وقد يقول قائل إن سلوك الرجل البدوي سلوك عادي في السفر. لكنه كان رفيعاً وإنسانيًّا في تقدير ليوبولد، لأنه قاسه على السلوك الأوربي المعتاد، والذي لا ينطوي على إمكانات غيرية كهذه. ولعل ليوبولد بعد أن عاش بين المسلمين سنوات، لم يكن سلوك كهذا ليلفت نظره. فهي المفارقة بين عالمين وثقافتين تجسدت في السلوك العفوي الإنساني لذلك البدوي المسلم.

السيد أحمد السنوسي (الشريف إمام السنوسية)

وهذا هو المثال الثاني للأفراد الذين أحبهم أسد وأحب الإسلام بسببهم. إنه السيد أحمد السنوسي الذي كان منفيًّا في المدينة المنورة بعد احتلال إيطاليا لبلاده "برقة". وأحب أسد السيد أحمد حُبًّا جارفاً. وعبَّر عن ذلك بقوله: "ليس في الجزيرة العربية كلها شخص أحْبَبْته كما أحببت السيد أحمد. ذلك أنه ما من رجل ضحَّى بنفسه تضحية كاملة مجردة عن كل غاية في سبيل مثل أعلى، كما فعل هو. لقد وقف حياته كلها، عالماً ومحارباً -٣٠ عاماً- على بعث المجتمع الإسلامي بعثاً روحيًّا، وعلى نضاله في سبيل الاستقلال السياسي، ذلك أنه كان يعرف جيداً أن أحد الهدفين لا يمكن أن يتحقق من دون الآخر."(٢) أعجب أسد بجهاد السيد أحمد ثلاثين عاماً في سبيل البعث الإسلامي، وفي سبيل استقلال بلاده وطرد الغزاة الطليان الفاشست. ويتحدث أسد عن الطريقة السنوسية وجهادها التربوي العظيم لنشر الإسلام في إفريقيا، الأمر الذي ضاعف من جاذبية السيد أحمد السنوسي.

---

(١) الطريق إلى الإسلام؛ ص ٩٦ .
(٢) نفسه؛ ص ٢٥٣ .

الملك عبد العزيز

ويتحدث أسد عن تقديره الكبير لشخصية الملك عبدالعزيز فيقول: "لقيت الملك عبدالعزيز بن سعود لأول مرة في مكة في أوائل سنة ١٩٢٧م بعد أشهر قليلة من اعتناقي الإسلام. ويصف كرم الملك عبدالعزيز فيقول: إنه لا يقتصر على أكياس الذهب بل يتعداها إلى صميم القلب: "ولعل رقة شعوره – أكثر من أي شيء آخر – هي التي تجعل الناس من حوله –بما فيهم أنا– يحبونه." "إنه يدعوني صديقه، على الرغم من انه ملك، وأنا مجرد صحافي ليس غير. وانا بدوري أدعوه صديقي ... لأنه كثيراً ما يفتح لي قلبه، ويكاشفني بمكنوناته تماماً كما يفتح كيس نقوده لكثيرين غيري." ويصف الملك عبدالعزيز بأنه رجل طيب إلى أبعد الحدود، ورجل شريف حر.(١)

وعلى هذا لا أقول إن هذه الصداقة أسهمت في جذب أسد إلى الإسلام، لأنه لم يعرف الملك إلا بعد أن أسلم، لكني أقول إنها جذبته إلى أخلاقيات الإسلام، وزادته حبًّا لحضارة الإسلام، وللأمة المسلمة. ثم سرد أسد عدة أحداث تكشف عن عظمة أخلاق الملك وذكائه.

زيد بن غانم

وتشكل أخلاقيات "زيد" رفيق أسد وحارسه وخادمه وصديقه فصلاً طويلاً في قصة الجاذبية القوية للسلوك الأخلاقي والإنساني للمسلمين. تقابل الرجلان في دير الزور، حيث كان أسد على وشك السفر إلى بغداد، وسائق سيارته الأرمني لا يعرف الطريق، وقد أخذ يسأل البدو في السوق عنها. وسمع زيد عن ذلك المسافر الذي لا يعرف الطريق، فتقدم إلى أسد وعرض عليه الصحبة كدليل، ووافق فوراً، وسافروا ثلاثتهم معاً.

كان زيد بن غانم من قبيلة شمر، وكان مجنداً في قوات "العقيل" التابعة

---

(١) الطريق إلى الإسلام؛ ص ٢٨ .

للجيش العراقي. وبعد صعوبات كثيرة وصلوا إلى بغداد، وذهب كلٌ إلى حال سبيله، لكن بعد أن نشأ بينه وبين زيد احترام كبير وإعجاب متبادل.

وفي ٢٩/٥/١٩٢٤ كانت بغداد ثائرة ضد معاهدة الصداقة مع بريطانيا، والتقى أسد مصادفة مع زيد. وعندما أراد السفر إلى الجزيرة العربية سنة ١٩٢٧ طلب من زيد أن يلازمه بصفة دائمة، ففعل دون تردد. وهو يمتدح زيداً فيقول: "لقد أعجبني في زيد شهامته إلى حد بعيد، وهو من جانبه قد أحب بصورة واضحة ذلك الشاب الأوربي الذي لم يكن يحمل في نفسه أي تعصب ضد العرب وضد طريقتهم في الحياة". (١) وهكذا صارا صديقين حميمين. وبهذه الصلة الوثيقة راحا يقطعان آلاف الأميال في جزيرة العرب من اقصاها إلى اقصاها، في مغامرات مهلكة رائعة تفوق الخيال. وكان "زيد" واحداً من العرب الذين تعاملوا مع أسد، بل أكثرهم تعاملاً معه والتصاقاً، فأحبه وأحب العرب الذين كان زيد ينتمي إليهم.

تجار دمشق وأهلها

وبعد الرحلة الشاقة من القدس إلى دمشق سيراً على الأقدام، وصل أسد إلى بيت صديقه المعلم السوري الذي تلقفه وضمه إلى صدره، مرحباً به. وانبهر أسد بمسلك الشعب السوري، وقال: "كنت أتجول إبان تلك الأيام الصيفية في أزقة السوق الرئيسة في دمشق، ووقفت على ذلك الاستقرار الروحي في حياة سكانها. إن أمنهم الباطني كان يمكن أن يرى في الطريقة التي كان أحدهم يتصرف بها نحو الآخر."(٢) ويصف أسد تعامل التجار أحدهم مع الآخر فيقول: "وما أكثر ما رأيت زبوناً يقف أمام دكان غاب عنه صاحبه.. فيتقدم التاجر المجاور – التاجر المزاحم! – ويبيعه من بضاعة جاره الغائب، لا من بضاعته هو، ويترك له الثمن على مقعده. أين في أوربا يستطيع المرء أن يشاهد مثال هذه الصفقة؟"(٣) هكذا يتساءل أسد في دهشة.

---

(١) الطريق إلى الإسلام؛ ص ٢٠٦. (٢) نفسه؛ ص ١٣٧.
(٣) الموضع نفسه.

ولسوف نرى هذا الانبهار لدى مراد هوفمان في الفصل الثالث من هذه الدراسة، لهذا المشهد التجاري نفسه، ولكن في مكان آخر. إنها أخلاقيات الإسلام في كل مكان فيه مسلمون ملتزمون بقيم دينهم.

العدالة الاجتماعية في الإسلام

وفي بداية رحلته الثانية إلى الشرق الأوسط سافر ليوبولد فايس سنة ١٩٢٤ من بورسعيد إلى القاهرة بالقطار. وتصادف أن كان معه في الديوان عمدة مصري وتاجر يوناني. ودار الحوار بينهم حول العدالة الاجتماعية في الإسلام، وعبر "فايس" عن إعجابه بالعدالة الاجتماعية في الإسلام، لكن التاجر اليوناني لم يوافقه في ذلك، بحجة أن الإسلام يبيح للمسلم الزواج من المسيحية ولا يبيح للمسيحي الزواج من المسلمة. وهذه ليست عدالة.

هنا تكلم العمدة على الفور. قال ما معناه إن الإسلام يبيح للمسلم الزواج من الكتابيات - اليهوديات والمسيحيات - لأنه يعتبر موسى وعيسى وإبراهيم أنبياء. فإذا تزوجت كتابية من مسلم لم تجد منه إساءة لدينها أو للنبي الذي تؤمن به. لكن المسلمة إذا تزوجت من يهودي أو مسيحي لا يؤمن بمحمد ويعتبره كذاباً، فسوف تسمع منه إساءات إلى دينها ورسولها. وليس من العدل تعريض نساء المسلمين لذلك الإيذاء والإذلال.

ويعلق أسد قائلاً: "إنه بدا لي أن العمدة البسيط، الأمي، بذلك الذوق السليم الذي يتميز به أبناء جنسه إلى حد بعيد، قد أصاب الكبد من مسألة على جانب عظيم من الأهمية ... وشعرت أن باباً جديداً إلى الإسلام كان يُفتح لي."(١)

أخوة الحجاج اليمنيين

وفي طريقه إلى الحج على ظهر سفينة أصيب أحد الحجاج اليمنيين بالملاريا، فأعطاه أسد بعض حبات الكينا، وتعافى الرجل. وسعد اليمنيون بذلك وجمعوا له

---

(١) الطريق إلى الإسلام؛ ص ١٨٩، ١٩٠ .

مبلغاً صغيراً، واعتذروا له لأنه ليس كبيراً. ورفض أسد أخذ أجر عن خدمة إنسانية بسيطة. وأصر اليمنيون. وشعر أسد أن رفضه سيفهم على أنه ليس رفضاً للمبلغ اليسير عندهم، بل رفض لمحبتهم القلبية له، فقبله: "وعندئذ فقط أدْرَكتُ فجأة: أنه من حيث جئت (يعني الغرب) كان هناك أناس اعتادوا أن يقيموا الجدران بين "أنا" و"أنت". أما هنا (في عالم الإسلام) فأمة لا تفصل بين أفرادها الجدران."(١)

الحاج المقدسي

وفي أثناء إقامته في القدس مع خاله دوريان شاهد ليوبولد من النافذة الشعب الفلسطيني في السوق القريبة، وتعجب من حرص الجميع على أداء الصلوات الخمس كل يوم. وانتقد ليوبولد الركوع والسجود في حديث مع الحاج الذي كان يؤم الناس. ورد الحاج متسائلاً: بأية طريقة أخرى - إذن - يجب أن نعبد الله؟ ألم يخلق الجسد والروح معاً؟ وإذا كان ذلك كذلك، أفلا يجب أن يصلي الإنسان بجسده كما يصلي بروحه؟" ثم شرح له وحدة العبادة ووحدة القبلة ووحدة العقيدة في الإسلام.

يقول أسد: "وبعد ذلك بسنوات عدة أدْرَكتُ أن "الحاج" بتفسيره البسيط قد فتح لي أول باب للدخول في دين الإسلام."(٢)

قرية الرينة

وفي طريقه إلى دمشق سيراً على الأقدام مَرَّ بالجليل، ثم "مرج ابن عامر" ثم قرية الرينة. وعند باب البيت الأول وجد بعض الرجال والنساء جالسين، فسألهم إذا كانت تلك هي قرية الرينة، فأجابوه بالإيجاب. وحين همَّ باستئناف السير، قالت امرأة: ألا تستريح قليلاً يا سيدي؟

وجلس إلى جانبهم، فقدموا إليه الماء البارد، والطعام، دون أن يطلبهما، وقد كان في مسيس الحاجة إليهما. ونزل عليهم ضيْفاً تلك الليلة دون أن يعرفوا اسمه.

---

(١) الطريق إلى الإسلام؛ ص ٢٩٠، ٢٩١.
(٢) نفسه؛ ص ١٠١.

ويعلق أسد على ذلك قائلاً: "ما أجمل أن ينزل الإنسان ضيفاً على عربي! .. أن تكون ضيفاً على عربي إنما يعني نفاذك لبضع ساعات نفاذاً صادقاً إلى صميم حياة أولئك الناس الذين يريدون أن يكونوا إخوة لك وأخوات."(١)

وأكمل رحلته إلى دمشق. وهو يصفها فيقول: "وكنت أحياناً أسير قسماً من النهار مع الجمالين، وأنعم هنيهة بحرارتهم البسيطة. كنا نشرب الماء من "ماطرتي"، وندخن معاً لفافة من التبغ، ثم أمشي بمفردي. وكنت أقضي الليالي في بيوت العرب آكلاً خبزهم .."(٢)

كانت هذه المعاملات الإنسانية الكريمة هي التي جذبت ليوبولد إلى العرب والمسلمين، وعمقت حبه وتقديره لهم، مع علمه بأنهم لم يكونوا ملتزمين بالإسلام كما ينبغي. وانضمت جاذبية المعاملة إلى جاذبية الإسلام ذاته كدين، لكي يمكن انتزاع الرجل من يهوديته وإدخاله في ظلال الإسلام. وفي دمشق أُلْهم: "بأن طريقاً جديداً إلى الحق كان قد أخذ ينقشع أمامي."(٣)

معنى الحياة الجديد

يقول أسد بعد أن عاشر المسلمين مدة طويلة: "لقد قابلت – وجهاً لوجه- إدراكاً لمعنى الحياة، كان جديداً بالكلية بالنسبة لي، فقد بدا لي أن هناك نسمة إنسانية دافئة تسيل من دماء هؤلاء العرب، إلى أفكارهم وحركاتهم، خالية من تلك الصدوع الروحية المؤلمة – تلك الأشباح من الخوف والنهم والكبت التي كانت تجعل الحياة الأوربية بشعة جداً، ولا توحي إلا بالقليل من الأمل. لقد بدأت أجد في العرب شيئاً طالما فتشتُ عنه من غير شعور: رشاقة عاطفية في معالجة مسائل الحياة جميعاً، وذوق شعوري رفيع." ويضيف بعد قليل: "وجدت فيهم الالتئام العضوي بين العقل والأحاسيس، ذلك الالتئام الذي كنا نحن الأوربيين قد فقدناه".

(١) الطريق إلى الإسلام؛ ص ١٢٥ .
(٢) نفسه؛ ص ١٢٦ .
(٣) نفسه؛ ص ١٨٨ .

فماذا وراء هذه الخصال الأخلاقية الحميدة ؟ هكذا تساءل في حيرة.

يريد ليوبولد فايس أن يدرك الجواب : "لقد بدأت أشعر بصورة متزايدة برغبة ملحة في أن أعرف الشيء الذي كان في أساس ذلك الأمن، ويجعل الحياة العربية تختلف هذا الاختلاف البيِّن عن الحياة الأوربية ."(١)

وظلت تساؤلاته معلقة حتى درس الإسلام بعمق، وأعلن إسلامه نهائيًا سنة ١٩٢٦م.

ويقول أسد إنه عندما جاء إلى بلاد العرب في أول رحلة سنة ١٩٢٢ فتَنَتْه معاملاتهم وطريقة معيشتهم، وعندما تساءل عما وراء ذلك، بدأ يعرف الإسلام . أي أن جاذبية المعاملة كانت هي التي جذبته لدراسة الإسلام .(٢)

انتقادات أسد لأوضاع المسلمين

ولم يخلط أسد بين الإسلام والمسلمين. وقد رأينا تقديره العظيم للإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقاً، وهو ما جذبه إلى اعتناقه سنة ١٩٢٦ . وقد أدرك أسد مبكراً أن المسلمين لا يلتزمون بالإسلام التزاماً كاملاً ، وإنما يلتزمون ببعضه ويهجرون بعضه. وقد أحزنه ذلك كثيراً، وعبَّر عن عدم رضاه عن تلك الأوضاع .(٣)

وأقْلَق أسد بشدة تقليد المسلمين للغرب بحجة التطور، الأمر الذي يهدد المسلمين بالتبعية الذليلة.

وهو يأخذ على المسلمين اتباعهم للغرب في مسألة الحريات الجنسية، على حساب قيمة العفة الأخلاقية.(٤)

ويحذرنا أسد من نبذ الأخلاقيات الدينية المطلقة، أي الثابتة الخالدة، وقبول النسبية التي شاعت في الغرب.(٥)

---

(١) الطريق إلى الإسلام؛ ص ١١٢،١١٣ ، الإسلام على مفترق الطرق؛ ص ١٤ .
(٢) نفسه؛ ص ١٨٧ .
(٣) الإسلام على مفترق الطرق؛ ص ١٤ .
(٤) نفسه؛ ص ٤٩ . (٥) نفسه؛ ص ٥١ .

ويقرر أسد في أسف أن: "الجو الديني في كثير من بيوت المسلمين قد بلغ من التدني والانحلال الفكري حداً أخذ يثير، في الأحداث الناشئين، عوامل الإغراء الأولى لأن يديروا ظهورهم للدين. وهذا يمكن على التحقيق ان يكون كذلك، أما في حال تعليم ناشئة المسلمين على أسس غربية، فإن التاثير سيكون على الأرجح موقفاً عدائيًا من دينهم."(١)

وهذا التعليم الغربي - للأسف الشديد - هو الشائع في العالم الإسلامي، مع تراجع الاهتمام بتعليم العلوم الإسلامية. وحتى الأزهر أدخلوا فيه التعليم الغربي على نطاق واسع ليزاحم العلوم الإسلامية الأساسية.

وأصبح لدينا الآن "هجين ثقافي" قوامه أفكار إسلامية واخرى مادية مضادة لها. وانقسمت الشعوب المسلمة تبعاً لذلك إلى إسلاميين و "متغربين" واندلعت المنازعات بينهم على كافة المستويات.

ويحذرنا أسد من الفلسفات الغربية، وإن كان في الوقت نفسه يدعو إلى تدريس العلوم.(٢)

وهو يقترح تدريس الأدب الإسلامي الذي يقنع الطلاب بسعة الثقافة الإسلامية وغناها، "وهكذا يشيع في أنفسهم الأمل من جديد بحسْن مستقبلها."(٣)

ويقرر أسد بجلاء: "أن تقليد المسلمين -سواء كان فرديًا أو جماعيًا - لطريقة الحياة الغربية لهو - بلا ريب - أعظم الأخطار التي تستهدف الحضارة الإسلامية."(٤) وهذا التقليد في الحقيقة إحلال شامل لكل ما هو غربي محل كل ما هو إسلامي أو شرقي أو عربي. وتلك كارثة كبرى؛ وهي ماضية في طريقها بعون بعض ابناء المسلمين المتيَّمين بالغرب أو الذين يرتبطون به بروابط مصلحية شخصية أو عرقية

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق؛ ص ٦٩ .
(٢) الإسلام على مفترق الطرق؛ ص ٧٣ .
(٣) نفسه؛ ص ٧٤ .
(٤) نفسه؛ ص ٧٩ ، ٨٠ .

أنانية. ولولا الصحوة الإسلامية الرشيدة في الربع الأخير من القرن العشرين لاصطبغت حياة أمتنا بالصبغة الأمريكية وصارت تابعاً ذليلاً لأمريكا.(١)

وصفوة القول عند أسد إن الأمة المسلمة قد وصلت مفترق طرق، وإن اختيارها يجب أن يكون نحو "حقيقة الإسلام" أو "الإسلام الحقيقي" دون بتر أو اجتزاء أو انتقاء، كما هو حادث اليوم في العالم الإسلامي.(٢)

مع الشيخ مصطفى المراغي

وانعقدت صداقة بين أسد وبين الشيخ مصطفى المراغي، الذي كان من أشهر شيوخ الأزهر في ذلك الوقت. وكان ينتقد أوضاع المسلمين الخاطئة، ويشجع أسداً على ممارسة النقد. ويقول أسد: "إنه لم يتوان قط عن أن يُشعرني بأن المسلمين في العهود الحديثة قد قصروا في الحقيقة تقصيراً كبيراً عن مُثُل دينهم العليا، وأن شيئاً لا يمكن أن يكون أكثر خطأ من قياس القوى والإمكانات في رسالة محمد بقياس حياة المسلمين وتفكيرهم في الأيام الحاضرة."(٣)

ودخل أسد الجامع الأزهر مع الشيخ المراغي، ورأى حلقات الدرس، وعلق الشيخ المراغي قائلاً: "إنهم يزدردون كل الصفحات المطبوعة من الكتب التي كتبت منذ قرون عديدة، ولكنهم لا يهضمونها". وذكَّره أسد أن الأزهر خرَّج أجيالاً من المفكرين والعلماء. فقال المراغي: "لقد انقطع عن إخراجهم منذ عدة قرون .. أصيب بالعقم الذي يشكو منه العالم الإسلامي كله اليوم."(٤)

ويعلق أسد قائلاً: "لقد كان واضحاً عندي أن تأخر المسلمين لم يكن ناجماً عن أي نقص في الإسلام، بل من عدم عملهم هم أنفسهم بتعاليمه."(٥)

* * *

(١) الإسلام على مفترق الطرق؛ ص ٨٥، ٨٦.
(٢) الموضع نفسه.
(٣) نفسه.
(٤) نفسه؛ ص ١٩٢.
(٥) نفسه؛ ص ١٩٣.

جهاده في سبيل الإسلام

كان اعتناق أسد للإسلام كسباً عظيماً لدين التوحيد؛ وقد ألَّف عدداً من الكتب القيمة التي قدمت الإسلام إلى الأوربيين والأمريكيين خير تقديم.

ولعل أهم مؤلفات أسد كتابه: "الطريق إلى الإسلام."(١) وهو كتاب رائع تمتزج فيه الثقافة بالأدب بالمغامرة، بأسلوب شيق، جذاب. وهو أهم كتاب أجاب فيه أسد على السؤال: لماذا أعتنق الإسلام؟ وإنني لأتمنى أن تتاح الفرصة لكل مسلم لقراءة هذا الكتاب النادر. ولو كان الأمر بيدي لقررت دراسته على طلاب الجامعات الإسلامية جميعاً، وفي كل المعاهد والكليات العملية والنظرية. وأنصح كل مسلم أن يهدي منه نسخة إلى كل صديق مسلم أو غير مسلم، وهو منشور بعدد من اللغات العالمية.

والكتاب الثاني المهم لمحمد أسد هو: "الإسلام على مفترق الطرق" الذي ترجمه الأستاذ الدكتور عمر فروخ (٢)، والذي صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٣٤م. ويشيد الدكتور مراد هوفمان بكتاب أسد هذا قائلاً إنه أسهم: "في أن يعيد للعالم الإسلامي - الذي كان قد فقد ثقته بنفسه أمام غزو التفوق التكنولوجي الغربي- يعيد إليه كرامته وثقته بنفسه."(٣)

والكتاب الثالث بعنوان: " شريعتنا"؛ نشر ١٩٨٧م.

وألف محمد أسد: "مبادئ الدولة والحكومة في الإسلام" الذي نشر سنة ١٩٦١م. وفي هذا الكتاب يقرر أنه: "لم تقم دولة إسلامية واحدة حقيقية بعد

---

(١) ترجمة عفيف البعلبكي؛ ونشرته دار العلم للملايين؛ ط ٩ سنة ١٤١٨هـ-١٩٩٧م في ثلاثمائة وخمس عشرة صفحة من القطع الكبير.

(٢) نشرته دار العلم للملايين؛ ببيروت؛ سنة ١٩٧٤ .

(٣) يوميات ألماني مسلم؛ ص ٦٦

أبي بكر وعمر وعثمان وعلي -الخلفاء الراشدين الأربعة الذين حكموا من المدينة."(١)

ومعنى هذا أن الدولة الإسلامية الكاملة، على غرار الدولة الإسلامية التي أنشأها النبي والراشدون، لم توجد في العصور التالية، بسبب غياب الشورى وذيوع الحكم بالقوة أو التغلب.

وربما كان أعظم عمل علمي أنجزه محمد أسد هو "رسالة القرآن" وهي ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى الإنجليزية بلغة شكسبير الجزلة الراقية، وقد مثلت "رسالة القرآن" حدثًا علميًا وأدبيًا مهمًا حين صدورها.(٢)

واقتدى محمد أسد في تلك الترجمة بأسلوب الشيخ محمد عبده في كتابه: "رسالة التوحيد" وفي تفسيره للقرآن في "تفسير المنار" الذي أصدره الشيخ رشيد رضا: "متبعاً في ذلك أكثر الطرق عقلانية وأقصرها إلى لب الموضوع، ومطبقاً في ذلك أحدث ما تم التوصل إليه من اكتشافات في علم اللغة والعلوم الطبيعية، ومتجنباً إظهار التقدير الزائف للممارسات الخادعة والأساطير التي حجبت الجوهر الحقيقي للإسلام إلى حد حظر التناول العقلاني لقضاياه."(٣)

ومن المؤسف أن تخلو مكتباتنا القومية والوطنية من مؤلفات محمد أسد باستثناء الكتابين الأول والثاني. وأحسب أن الوقوف على دقائق فكره لا يتم إلا بدراسة كتبه كلها.

وقد تلقى العلماء المسلمون في كل مكان مؤلفات محمد أسد بالتقدير والترحيب، وذاع صيته كمفكر إسلامي ملتزم، الأمر الذي جذب إليه قلوب الجميع، وخصوصاً في باكستان في أثناء قيامها سنة ١٩٤٧ بعد انفصالها عن الهند.

---

(١) يوميات ألماني مسلم؛ ص ٦٦.
(٢) د. مراد هوفمان؛ يوميات ألماني مسلم؛ ص ٦٧.
(٣) الموضع نفسه.

إنجازات أسد في باكستان

ويقول أسد : "عندما انشئت باكستان في عام ١٩٤٧ ، دعتني حكومتها إلى تنظيم دائرة إحياء الإسلام التي كان عملها تحسين المفاهيم الفكرية الإسلامية للدولة والجماعة التي يمكن أن تشاد عليها المؤسسة الحديثة. وبعد عامين من هذا النشاط المغري إلى أبعد الحدود، انتقلت إلى وزارة الخارجية الباكستانية وعُيِّنت رئيساً لقسم الشرق الأوسط، حيث وقفت نفسي على تقوية الروابط بين باكستان وسائر أجزاء العالم الإسلامي، ولم ألْبث أن وجدت نفسي بين أعضاء وفد باكستان إلى الأمم المتحدة."(١)

وهذه الوظائف التي تقلدها أسد بتكليف الحكومة الباكستانية تدل على الثقة القوية التي وضعتها فيه. فتحسين المفاهيم الفكرية يحتاج إلى مفكر مسلم كبير، وباحث علمي قدير. وباكستان، والهند، كان فيهما في ذلك الوقت، كما كان فيهما في كل وقت، مفكرون كبار، بوسعهم النهوض بتلك المهمة الخطيرة. فإذا اختارت باكستان أسداً للقيام بهذه المهمة، كان معنى ذلك أنه الأقدر بين الموجودين في اعتقادها.

وبعد عامين عينته باكستان رئيساً لقسم الشرق الأوسط، بعد أن وضع الخطط، وهيأ السبل، لإنجاز مهمته الأولى الخطيرة، التي أحبها وكلف بها جداً، رئيساً لقسم الشرق الأوسط بوزارة الخارجية. وهذه وظيفة كبيرة ومهمة، ولم تكلفه باكستان بها إلا لمعرفتها بخبرته العميقة الواسعة بالشرق الأوسط، وثقتها الكاملة في أنه خير من يمثلها ويوطد روابطها بشعوب الشرق الأوسط وحكوماته.

لقد اعتنق أسد الإسلام سنة ١٩٢٦م، وبعد عشرين سنة أصبح جديراً بكل تلك الوظائف لدى حكومة باكستان. وقد كانت سنين جهاد علمي وأدبي وسياسي

(١) محمد اسد؛ الطريق إلى الإسلام؛ ترجمه إلى العربية عفيف البعلبكي؛ نشر مكتبة العبيكان؛ دار العلم للملايين؛ ط ٩ سنة ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

متواصل وشاق، ومثمر، بحيث جعلت هذا المهتدي، المراسل للصحف الأوربية، في قمة النخبة الرائدة في العالم الإسلامي عامة، وفي باكستان خاصة. وهذا ضرب من الإعجاز في حياة هذا الرجل.

كانت الدولة الإسلامية في ذلك الوقت (١٩٤٧) حلماً يراود مخيلة أسد، وغيره من كبار المثقفين، وشعوب العالم الإسلامي كله، وقد اقنعه الشاعر الإسلامي الكبير محمد إقبال، بالبقاء في الهند لكي يسهم في إيضاح المقدمات العقلية للدولة الإسلامية. وكان ذلك في نظر أسد "الطريقة الوحيدة لإنعاش جميع الآمال الإسلامية الهاجعة، ولخلق وحدة سياسية من الناس الذين لا يربط بينهم نسب مشترك، بل تعلق مشترك بأيديولوجية فكرية واحدة."(١)

ويقول الأستاذ عبدالوهاب عزام أول أمين عام للجامعة العربية في المقدمة التي كتبها لكتاب محمد أسد "الطريق إلى الإسلام" إنه التقى بأسد في باكستان، وأن أسداً أصدر مجلة "عرفات" هناك وكتب ابحاثاً قيمة في الدستور الإسلامي، وتولى رياسة معهد الدراسات الإسلامية في لاهور، ثم انتقل إلى وزارة الخارجية. ويعرب عبدالوهاب عزام عن حبه واحترامه وتقديره لمحمد أسد وعمله الدءوب في سبيل الإسلام.(٢)

الجهاد بالنفس: الرحلة للقاء عمر المختار

خاض محمد أسد تجربة رهيبة ضد القوات الإيطالية التي كانت تحتل ليبيا. فقد كان السيد أحمد السنوسي يعيش في المدينة المنورة، ويعرف محمد أسد، ويعرف تجاربه كرحالة عبر الصحاري معرفة جيدة.

وذات يوم سأله السيد أحمد السنوسي: هل تذهب إلى برقة بالنيابة عنا، فتقف على ما يمكن صنعه للمجاهدين؟

---

(١) الطريق إلى الإسلام؛ ص ١٤ .

(٢) الطريق إلى الإسلام؛ ص ٤ .

وابتهج أسد لتلك الثقة وأعلن موافقته فوراً !

وعبر أسد البحر الأحمر ونزل سرًا على الشاطئ المصري، ومعه رفيقه زيد. وعندما عرض بعض المال على البحار الذي عبر بهما رفض وقال إن أسياده دفعوا له.

ومن القصير سافروا بالقطار إلى أسيوط.

ومن أسيوط إلى بني سويف.

وهنا سلّما رسالة من السيد أحمد السنوسي إلى رجل من أنصاره يدعى إسماعيل الذيبي.

واتصل الذّيبي بأحد أفراد الأسرة المالكة المصرية الذي كان شديد الغيرة على جهاد السنوسية، فوافق على تزويد أسد بالمال والزاد واثنين من قبيلة "أولاد على" ليدلاه في الطريق، أحدهما اسمه عبد الله والآخر نسى أسد اسمه.

وأعطاه إسماعيل الذيبي بندقيتين إيطاليتين لوفرة الذخائر الإيطالية هناك.

والتقى أسد بالدليلْين في بساتين النخيل خارج بني سويف.

وزودوهم بأربعة هجن قوية وسريعة، وزاداً وماءً.

وفي الليلة الأولى قطعوا حوالي ثلاثين ميلاً، ثم قضوا النهار في دَغَل من أشجار الطرفاء.

ثم زودوا السرعة فوصلوا بعد أربعة أيام إلى الواحة البحرية.

وذهب الدليل عبد الله لمقابلة الرجل الذي كان عليهم أن يتصلوا به في قرية مجاورة تدعي "باويتى" ثم عاد ومعه الرجل.

وبعد مسيرة خمس ليال أخرى وصلوا إلى "واحة سترة " الخالية من السكان.

وفي نهاية الليلة الخامسة وصلوا واحة سيوة، ونزلوا في غيضة من النخيل البري في جنوبها.

وركب عبد الله فوراً إلى الدسكرة المجاورة ليبحث عن الرجل الذي عهد إليه

السيد أحمد السنوسي بمرافقتهم إلى الحدود الليبية. وبعد بضع ساعات عاد عبد الله ومعه دليلان جديدان من بدو البراعصة، وأربع مطايا بدلاً من تلك التي استبد بها التعب.

ثم ساروا عبر السهل الصحراوي الواسع لمسافات طويلة دون ماء، ثم عثروا على بئر مهجورة فارتووا منها.

ولما تأخروا في استئناف المسير وطلعت الشمس، باغتتهم طائرة إيطالية، استطاع خليل أن يصيبها ببندقيته، فولّت هاربة، بعد أن قتلت مطية عبد الرحمن.

وبعد أربع ليال أخرى وصلنا إلى وادي التعبان، واختبأنا في واد صغير تكتنفه الأشجار الكثيفة، في انتظار عمر المختار.

وبعد إشارات صوتية كعويل ابن آوى، ظهر رجلان وسلّما على "عبد الرحمن" وأخبراه أن سيدي عمر قادم.

وجاء "عمر" على جواد صغير لُفَّتْ حوافره بالقماش، ومعه بعض الرجال.

وناقش "سيدي عمر" ومحمد أسد إمكانات تهريب السلاح والغذاء من مصر لدعم المجاهدين.

وعاد أسد وزيد إلى مصر في رحلة مهلكة لا تقل خطورة عن رحلة الذهاب. واستغرقت تلك الرحلة شهرين تقريباً.(١)

هذه هي الإنجازات الجهادية البطولية للمهتدى الكبير محمد أسد، رحمه الله.

* * *

---

(١) الطريق إلى الإسلام؛ ص ٢٦٥ - ٢٨٣

خاتمة

هذه في إيجاز صورة الأنموذج الأول للمفكرين الغربيين الذين اهتدوا إلى الإسلام.

وهذا هو الجواب عن السؤال الكبير: لماذا أسلموا؟

لقد نَفَر محمد أسد من الخرافات التي وجدها في دينه الموروث ومن العجز عن الجواب عن الأسئلة الوجودية الكبرى التي عذبت ضميره الحي وروحه الوثابة العاشقة للحقائق.

وشاء الله تعالى لهذا المفكر الفذ أن يتصل بالإسلام، وأن يختلط بالمسلمين.

وانبهر محمد أسد بالإسلام في كليته وفي جزئياته جميعاً، كما انبهر بسلوك المسلمين الذين تصادف أن تعامل معهم، فانجذب إلى الإسلام واعتنقه.

وتشكل مراحل انتقال محمد أسد من اليهودية إلى الإسلام فصلاً فريداً، مبهراً، في تاريخ الاتصال بين الشرق والعرب، أو بين الإسلام والثقافة العربية.

ويعتبر محمد أسد مثالاً فريداً للمسلم الحق، والمفكر الصادق، الذي كرس فكره وعمله لله تعالى. وهو بهذه الخصال الرائعة قوة تربوية هائلة قادرة على جذب ملايين الشاردين من الشباب إلى مظلة الإسلام الوارفة.

ويتحتم علينا نحن المسلمين أن ننشر قصة هذا المهتدى المدهش على أوسع نطاق بين أجيالنا الصاعدة، لكي يروا كيف يفعل الإيمان الصادق والفكر الشجاع فعله في التغيير والإصلاح.

رحم الله ذلك المهتدي المجاهد وأسكنه فسيح جناته مع الصديقين والشهداء ﴿ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩].

الفصل الثاني

المهتدية مريم جميلة
(مارجريت ماركس سابقًا)
أشهرت إسلامها يوم ٢٤/٥/١٩٦١م

تصدير

هذه الدراسة تنطوي على قصة مشوقة، طريفة، سوف يجد البعض فيها تسلية ومتعة. غير أن التسلية والمتعة لم يكونا من الأهداف الأصلية المبتغاة، بل أفْرَزَتهما طبيعة الموضوع. وظل الهدف الثابت هو: رسم صورة صادقة لجهاد فتاة أمريكية مَسَّ الإيمان بالله شغاف قلبها، واتصلتْ روحها بنبع كتابه العزيز، فنَفَضَتْ عن نفسها أدران القلق والشك، وتسامى بها القرآن الكريم إلى مصاف المجاهدين من العلماء الأبرار الزاهدين، حتى نَذَرَت نفسها للدفاع عن الإسلام، في الداخل والخارج، وقدَّمَتْ، في سبيل ذلك، ثروة علمية وأدبية كبيرة، أضافتها إلى المكتبة الإسلامية باللغة الإنجليزية.

وبإخلاص المؤمنين، وموضوعية العلماء، تابَعَتْ "مريم جميلة" المذاهب التجديدية، والتوفيقية، والاعتذارية، والعلمانية، والمادية، والنسبية، وأوضحتْ أخطارها على الإسلام، وعرَّت معايبها، وكشفت مناقصها، وزيفها، ومراوغاتها.

وأجابت "مريم جميلة" على السؤال الكبير: لماذا اعتنقتُ الإسلام؟ "Why I Embraced Islam" [(١)] فتحدثتْ عن اليهودية التقليدية واليهودية "المجدَّدة"، وعن العهد القديم والعهد الجديد، وعن الصهيونية، وعن تجاربها الشخصية في الجمعيات العلمانية والمدارس الإلحادية. وكشفَتْ لنا بصدق ووضوح عن الظروف الصعبة التي تكتنف العمل الإسلامي في الغرب، والعقبات التي تواجه كلَّ مَنْ يتحول إلى الإسلام. ومن خلال حديثها عن تطورها الروحي تكشفُ لنا عن جهود المبشرين والمستشرقين في الحرب المعلنة ضد الإسلام والمسلمين.

وهذه الدراسة تنطوي على صفحات ترسم صورة مختصرة، ميسرة، لمراحل هذا الجهاد.

---

(1) Islam and Modernism; Publisher Mohammad Yusuf Khan; Sant Nagar, Lahore; 4th Edition, 1977; PP.I-XIII .

حياتها وتطورها الروحي

وُلدت "مارجريت ماركس" في مدينة نيويورك سنة ١٩٣٤ لأبوين يهوديين من أصل ألماني. وكان والداها، المستر هربرت ماركس والمسز ماركس، قد تخليا عن الديانة اليهودية التقليدية، واعتنقا "اليهودية المجدَّدة" التي صاغها فلاسفة التجديد اليهود لكي تتسق مع الثقافة العلمانية الأمريكية المسيطرة في مجتمعهم وكانت "اليهودية المجدَّدة" تمثل مرحلة أولية على الطريق إلى الإلحاد!

تقول "مارجريت": "لقد وُلدتُ في بيت يهودي مُجدَّد Reformed ذاب في ثقافة مجتمعه، ولم أولد في بيت محافظ. ولم يكن والداي، ولا أقربائي، يلتزمون بالشريعة اليهودية. وكانت أسرتي – بخلاف الأغلبية السائدة من اليهود في أمريكا – من أصل ألماني لا روسي". (١)

وقد تدرجت أسرة "ماركس" خطوة خطوة، في الابتعاد عن الدين، حتى انتهت إلى الإلحاد، ونَبْذ كل ما يمت إلى اليهودية بصلة! حتى الأسماء اليهودية ذاتها نبذوها وانتحلوا أسماء أخرى. وهذه التطورات تحققت في ثلاثة أجيال من المهاجرين.

جمعية الثقافة الأخلاقية

وتُفصِّل "مارجريت" قصة أسرتها في الطريق من اليهودية إلى الإلحاد، فتقول إن أحد الحاخامات اليهود، ويُدعى "فيلكس آدلر "Felix Adler كان قد أسس "جمعية الثقافة الأخلاقية" في نهاية القرن ١٩، وإنه كان يروِّج من خلال مدرسة الجمعية لـ "ديانة بشرية"! وتصف تلك الديانة بأنها مزيج من الفلسفة السوفسطائية القديمة، وفلسفة "أوجست كونت"، ومذهب "نيتشه". كان "آدلر" يزعم أن الدين البشري الوحيد المناسب للإنسان في العصر الحديث هو الإيمان بالقيم الأخلاقية بعد فصلها نهائيًا عن الدين، وتكريس الحياة من أجلها. وكان يروِّج لمزاعم السوفسطائية

(1) Islam in Theory and Practice. P 2

التي تقول إن العدل والوفاء والصدق والرحمة والإيثار، وكل القيم الأخلاقية هي قيم نسبية تتغير بتغير الزمان والمكان؛ فما هو فاضل اليوم لابد أن يصبح رذيلة غداً أو بعد غد. وطبقاً للنسبية لابد أن تصبح كل القيم والوصايا اليهودية القديمة غير ملائمة للإنسان الحديث؛ لقد عفى عليها الزمن، ويتحتم إحلال القيم العلمانية الجديدة، المتغيرة، محلها.

وانتسب المستر ماركس، ومعه أسرته، بما فيها "مارجريت" إلى هذه المدرسة الإلحادية، ومكثوا فيها إحدى عشرة سنة، وتشربوا أفكارها. غير أن المستر ماركس، على ما يبدو، لم يستقر على خط "آدلر"، إذ نجده بعد هذه المدة الطويلة يفكر في الانتساب إلى الكنيسة الموحدة Unitarian Church، التي تنكر التثليث، كما تنكر ألوهية المسيح عليه السلام وتؤمن بأنه نبي، وتؤكد وحدانية الله. فالرجل، ومعه أسرته، يتذبذب بين اليهودية التقليدية، واليهودية "المودرن" والإلحاد، ثم المسيحية على مذهب هذه الكنيسة!

في هذا المناخ الثقافي العائلي وُلدت "مارجريت" سنة ١٩٣٤ كما ذكرنا. ودفع بها أبوها إلى التعليم العلماني الأمريكي الرسمي. وحين كان أبوها لا يزال يؤمن باليهودية، أرسلها إلى "مدرسة الأحد اليهودية"، مع أختها، لكي تتعلم مبادئ دينها. وتحكي "مارجريت" قصتها مع هذه المدرسة فتقول إنها كانت فوضى كاملة، ولم يكن التعليم فيها جاداً؛ ولم يكن أحد من التلاميذ يلتزم بالدين أو يعمل به، بل يسخرون من الشعائر اليهودية. وقد انتهى الأمر بها وبأختها - أيضاً - إلى أن كرِهَتا تلك المدرسة كرهاً شديداً، وألَحَّتا على أبيهما أن يوافق على تركهما لها، ففعل.

وحين التحق "المستر هربرت ماركس" بمدرسة "آدلر" للثقافة الأخلاقية، أخذ معه أسرته أيضاً! واستطاع "آدلر" خلال إحدى عشرة سنة أن يقنع فتاتنا بفلسفته، كما أقنع الأسرة كلها بها.

لكن "مارجريت" التي كانت شغوفة بالقراءة والدرس، والتي كانت تتقدم في معرفة الإسلام، لم تستطع أن تبقى وفيَّةً لفلسفة "آدلر"، وأخذت تشك في قيمتها بوصفها موقفاً سلبيًّا اتباعيًّا، لا يقود بل يُقاد، لأنه يتبع المجتمع، ويفلسف اتجاهاته. وفي أثناء البحث والتنقيب دخلت "مارجريت" في تجربة جديدة!

لقد سايرت أسرتها حتى مرحلة "الثقافة الأخلاقية" فحسب، ثم تركتهم يلتحقون بالكنيسة الموحدة، وأخذت هي وُجهتها المستقلة. اتصلت أولاً بجماعة بهائية، كان يقودها رجل يُدعى "ميرزا سوهراب"، وكان يزعم أنه كان سكرتيراً لعبد البهاء، أحد مؤسسي البهائية (وهي جماعة مرتدة عن الإسلام). وتقول "مارجريت" إن الفكرة التي جذبتها إلى تلك الجماعة هي دعوتها لوحدة الجنس البشري. لكن خبرة "مارجريت" في صفوف البهائية أكدت لها أنهم لا يصنعون شيئاً لتحقيق فكرتهم؛ ولذلك تركتهم بعد عام واحد، بعد أن تحررت من أوهامهم.

وواصلت فتاتنا القلقة رحلتها الروحية، متجهة نحو الصهيونية هذه المرة! ففي سن الثامنة عشرة التحقت بالفرع المحلي لحركة الشباب الصهيوني التي كانت معروفة باسم: "ميرزا تْشي هاتْزار". ومن خلال التجربة عرفتْ الطبيعة الحقيقية للصهيونية، وفهمتْ أفكارها، ولم تقبلها. فالصهيونية ترى أن النزاع بين اليهود والعرب أبدي، ولا حل له. وهي ترى غير ذلك. والصهيونية مزيج من القومية العنصرية والعلمانية. واتجاهات "مارجريت" مضادة للقومية، اليهودية وغير اليهودية.

وفي العشرين من العُمر خاضت "مارجريت" تجربة أخرى مثيرة. فقد التحقت بجامعة نيويورك. وكانت هناك مقررات دراسية اختيارية. ووَجَدَتْ من بينها موضوع: "اليهودية والإسلام"، فاختارته. فهي تعرف اليهودية، وتعرف الكثير عن الإسلام، وذلك يساعدها على التفوق في تلك الدراسة، فضلاً عن أنها تبدو مناسبةً لاهتماماتها الروحية.

وكان الأستاذ المحاضر في الموضوع هو "الحاخام كاتش (إبراهام إسحاق)"؛

وتقول "مارجريت" إن البروفيسور "كاتش" كان يحاول جاهداً أن يثبت لتلاميذه -وكلهم يهود- تفوق اليهودية على الإسلام. وكان يحاول أن يبين أن عقائد الإسلام وتشريعاته مقتبسة من التوراة؛ وكان يأخذ الآية القرآنية ويحاول ردها إلى أصول توراتية.

لكن الأمر المدهش حقًّا هو أن "مارجريت" آمنت بنقيض ما كان يريد "كاتش"! فقد كانت معلوماتها عن الإسلام تقول إنه الدين الذي يقوم على التوحيد المطلق المنزه، البرىء من كل تجسيد أو تشبيه، في حين أن الإله كما يصوره العهد القديم، وكذلك كتاب الصلاة اليهودية، إنما هو موظف حكومي كبير!! وكل الأخطاء التاريخية، والعلمية التي وردت في التوراة، لا أثر لها في القرآن الكريم. ولو أن القرآن الكريم اقتبس من التوراة أو من غيرها، لكان من المحتم أن ينقل بعض الأخطاء الجسيمة عن عُمر الكون ونشأة الأرض، والإنسان، وتجسيد الإله، وقوميته (فالله في التوراة إله يهودي قومي، وليس إلهاً للناس أجمعين!).

ورفضتْ "مارجريت" كذلك مزاعم "كاتش" بأن الفوز بالجنة في الآخرة مشروط بالإيمان بحق اليهود المقدس في فلسطين. وقارنت في ذهنها، وفي أثناء محاضرات "كاتش" بين القومية العنصرية اليهودية الصهيونية، وبين الأخوة الإنسانية التي أكدها القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. وأدركت أن "كاتش" يستغل جهل طلابه ليصب في عقولهم تلك الأخطاء المتعمدة الفاحشة!

لكن "كاتش" ساعد "مارجريت" على البرء من كل أثر لـ "آدْلر". فقد بيَّن لطلابه أن ثبات القيم الأخلاقية ضرورة حتمية، لا مجرد شيء مرغوب فيه. وأثبت أن الإيمان بالجزاء الأخروي هو الشرط الضروري لإمكان السلوك الإيثاري. وإلاَّ، فلماذا يؤْثر المرء أخاه على نفسه إذا لم يكن ينتظر الجزاء من الله؟

ومن الجلي أن مبدأ الثبات للقيم الأخلاقية هو مبدأ إسلامي. وقد أدركتْ "مارجريت" ميزة تطبيقه في الإسلام، فليس ثمة تفرقة عرقية أو ثقافية لدى المسلمين، بحكم كتاب الله، وسنة رسوله، وتلك ميزة إسلامية لا وجود لها في

الثقافة اليهودية التي تتحكم فيها بقسوة نوازع التفرقة العرقية والثقافية، وتجعل عمل الخيرات "للأميين" – أي غير اليهود – جريمة أخلاقية !

وأيقنتْ "مارجريت" أن اليهودية "منقوصة إلى حد بعيد"، حسب تعبيرها. وكانت النتيجة الحتمية أن اعتنقتْ الإسلام!

في الطريق إلى القرآن الكريم

كيف عَرَفتْ مريم جميلة (أو مارجريت ماركس) القرآن الكريم ؟ وما العقبات التي صادفتها على الطريق ؟ وكيف تخطتها ؟ وإلامَ انتهت بها ؟

تقول "مريم" في الجواب على هذه الأسئلة: إن الطرُق والمسالك قد تشعبت أمامها، ولكنها انتهت بها، بتوفيق من الله وعون، إلى اكتشاف القرآن الكريم. ولقد بذلت جهوداً مضنية، في مثابرة وإصرار، إلى أن نالتْ الجائزة العظمى في نهاية المطاف. ولذلك فهي مغتبطة أشد الاغتباط!

ولكن تفاصيل قصة مريم على طريق القرآن مدهشة إلى حد بعيد!

فلقد كانت البداية بعيدة كل البعد عن أن تقودها إلى رحاب التنزيل! كانت "مارجريت" مغرمة بالموسيقى، وعلى الخصوص: موسيقى الأوبرا الكلاسيكية والسيمفونية، تلك التي تمثل قمة من قمم الثقافة الرفيعة في الغرب. وكانت الموسيقى هي مادتها الأثيرة طوال حياتها المدرسية، وتبعاً لذلك كانت تفوز فيها بأعلى الدرجات.

تلك كانت بداية الطريق الطويل الشاق إلى اكتشاف القرآن ! ... ولكن كيف ؟!

في الحادية عشرة من عمرها، تصادف أن سمعتْ "مارجريت" الموسيقى العربية في الراديو، وأعجبت بها إعجاباً كبيراً، ثم شرعت تستزيد منها. وبمجرد أن ألفتْ "مارجريت" الموسيقى العربية، أخذت الموسيقى الغربية تفقد جمالها وحلاوتها في أذنيها !

ولم تُشبع نَهْمَة "مارجريت" إلى الموسيقى العربية برامجُ الإذاعة، فألَحَّتْ على والدها إلحاحاً شديداً حتى أخذها إلى الحي السوري في مدينة نيويورك حيث أمكنها أن تشتري كمية كبيرة من التسجيلات العربية "للجرامفون". ومن بين تلك التسجيلات عثرت "مارجريت" على تلاوة لسورة "مريم" بصوت أم كلثوم، وأغرمت بها غراماً شديداً !

كانت "مارجريت" في ذلك الوقت قد بلغت الثانية عشرة من عمرها –سنة ١٩٤٦– ولم يكن بوسعها أن تتنبأ بالشهرة الواسعة التي ستنالها أم كلثوم، كمغنية، لا كقارئة للقرآن الكريم. وقد أحبت صوتها لجماله، وغناه بالإحساس والدفء، في تلاوة تلك السورة العظيمة من كتاب الله.

ومن خلال الاستماع المتصل للتسجيلات العربية أحبت "مارجريت" الأصوات العربية، دون أن تفهم منها حرفاً ! وتقول "مارجريت" إنه لولا حبها للأصوات العربية التي بدت لها في غاية الغرابة، لما تنامى لديها حب التلاوة القرآنية.

وتخيل معي أيها القارئ ماذا يمكن أن يحدث في بيت يهوديٍّ أمريكي، تصر ابنته على أن تستمع ساعات طوالاً، للقرآن الكريم يُتلى فيه، وللغناء العربي يتردد في أرجائه، بصوت أم كلثوم، وغيرها أيضاً ؟! ماذا يصنع الأب، وماذا تفعل الأسرة؟!

لقد اعتبر والدها أن حظهم العاثر وحده هو المسئول عن ذلك "الإزعاج الفظيع" ! وطالبت الأسرة ابنتها بأن تغلق الأبواب بينها وبينهم كيلا تصل إلى آذانهم من التلاوة كلمة واحدة!

ولم تَفتُر رغبة "مارجريت" في الإصغاء إلى كتاب الله بمرور الأيام. لكن أسرتها على ما يبدو قد تعودت على هذا الوضع، وتركتها وشأنها، كما تركتهم هي وشأنهم. وتقول "مريم جميلة" إنها بعد أن أشهرت إسلامها في ٢٤ / ٥ / ١٩٦١ كانت

تقضي الساعات في مسجد نيويورك تستمع إلى آيات الذكر الحكيم يتلوها الشيخ عبد الباسط عبد الصمد في تسجيلاته العديدة الرائعة (١).

وتقول "مريم" إنها ذات يوم ذهبت إلى مسجد نيويورك لأداء صلاة الجمعة، فإذا بها تفاجأ بشاب قصير القامة، نحيل الجسد، عليه ثياب متواضعة، وقد قدَّم نفسه للمصلين فقال إنه طالب من "زنزبار"، ثم جلس وشرع في تلاوة القرآن الكريم، بدلاً من المسجل الذي كان من المعتاد استعماله لعدم وجود قراء. وتقول "مريم" إنه بمجرد أن فتح ذلك الشاب فمه، وشرع يتلو قول الله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤]، شعرت على الفور بأنها تستمع إلى نسخة معاصرة، حيَّة، لـ"بلال بن رباح" رضي الله عنه! فلقد كان صوت ذلك الشاب الإفريقي، ذهبيًّا رائعاً، يفوق صوت عبدالباسط عبدالصمد، فضلاً عن التشابه الجسدي بينه وبين "بلال" الحبشي!

هذه هي البداية العجيبة لطريق "مريم جميلة" إلى اكتشاف القرآن الكريم: من الموسيقى الكلاسيكية، إلى الموسيقى العربية - مصادفةً! - إلى تلاوة سورة "مريم" بصوت أم كلثوم، إلى الوقوع في غرام الأصوات العربية بعامة، ثم الشغف بتلاوة القرآن الكريم، في البيت، وفي المسجد!

أما دراسة كتاب الله، والتعرف على أسراره، وشرائعه، وعقائده، وأخلاقياته، وكيف انتقل بالعرب من قبائل متفرقة متناحرة، إلى أمة واحدة، عظيمة، لها حضارتها وثقافتها وآدابها وفنونها، فلا سبيل إليه إلا الدراسة الجادة.

كانت السبيل الأولى التي قادت "مريم جميلة" إلى رحاب القرآن هي الموسيقى، ثم التلاوة، ثم الرغبة العارمة في فهم هذا الكتاب العظيم. وكانت السبيل الأخرى هي: الدراسة الجادة المضنية من خلال الترجمات الإنجليزية لمعاني القرآن الكريم.

كانت "مارجريت" شغوفة بالمطالعة منذ الصغر. وهي تقول إنها لم تدع كتاباً

(1) Correspondence; P. 36

وقع بين يديها عن العرب إلا قرأته، سواء في مكتبة المدرسة والمكتبات العامة، وعلى وجه الخصوص تلك الكتب التي تتحدث عن العلاقات التاريخية بين العرب واليهود وعلى الرغم من ذلك فإن معرفتها بالقرآن الكريم قد تأخرت إلى أن بلغت التاسعة عشرة. وتقرر "مريم" أنها في نهاية فترة المراهقة من عمرها كانت قد اقتنعت، من خلال قراءاتها الواسعة، بأن العرب ليسوا هم الذين رفعوا شان الإسلام، وإنما الإسلام هو الذي ارتفع بالعرب من مجرد قبائل وعشائر بدوية متناحرة إلى مستوى الأمة الواحدة، التي استطاعت أن تبسط سلطانها على أطراف الأرض. ومن هذا الاقتناع بزغ لديها الإصرار على أن تقرأ القرآن الكريم، وتدرسه، لكي تتعرف على سر القوة الروحية الفذة التي قفزت بالعرب تلك القفزة الحضارية الهائلة (١).

وفي عام ١٩٥٣ لاحت لها الفرصة لإجراء تلك الدراسة.

كانت "مارجريت" مُشغلة بالمواد الدراسية في كليتها. وتصادف أن وقعتْ فريسة للمرض، في شهر أغسطس من ذلك العام، فقَطَعَتْ دراستها، ولزمت البيت، طوال الفصل الدراسي كله. وذات مساء، كانت والدتها - وهي مشرفة اجتماعية مرموقة - في طريقها إلى المكتبة العامة، فطلبت إليها "مارجريت" أن تأتيها بنسخة من القرآن الكريم. وبعد ساعة عادت الأم ومعها ترجمة "جورج سال" (وهو مبشر مسيحي عاش في القرن الثامن عشر) لمعاني القرآن الكريم.

شرعت "مارجريت" - وهي ملازمة لفراش المرض - في دراستها بشغف وجدية، ولكنها لم تفهم إلا أقل القليل! وسبب ذلك - كما تقول هي - اللغة العتيقة، وكثرة النقول التي وضعها المترجم في الهوامش، ومحاولاته التي لا تتوقف لإنكار الحقائق القرآنية الدينية استناداً إلى وجهة نظره المسيحية. ولما كانت فتاتنا في ذلك الوقت لا تزال شابة، غرة، قليلة العلم والخبرة، بمثل هذه المسائل الاعتقادية، فقد نجحت ترجمة "سال" الشائهة في إقناعها بأن القرآن الكريم إنما هو مجرد قصص محرفة مقتبسة من التوراة!

(1) Correspondence; P. 10

وتلك هي الفرية المختَلَقة التي يرددها عدد كبير من المستشرقين المتعصبين ضد الإسلام، والتي أكدت زيفها وتهافتها الدراسات المقارنة الحديثة (انظر مثلاً: بوكاي؛ التوراة، والإنجيل، والقرآن، والعلم الحديث). والمدهش حقًّا في قصة "مارجريت" أن هذا الاقتناع لم يفلح في إبعادها عن القرآن الكريم. ربما لأنها عرفت أن المترجم مبشر، وأنه يعمد إلى التشويه والتحامل، فعاودت "مارجريت" القراءة والدراسة، بصورة متصلة، لمدة ثلاثة أيام، ولم تتم قراءة المصحف إلا بعد أن أُنهكت قواها، وأضحت من الضعف كعجوز في الثمانين، حسب تعبيرها! وهي كما علمنا كانت مريضة، ملازمة للفراش، منقطعة عن الدراسة!

وتقول إن كل ما بذلته من جهد في قراءة ترجمة "سال" لم يجعلها تحب القرآن، الذي أغرمت بتلاوته، وظلت على موقفها العدائي لما جاء فيه! وعلى الرغم من ذلك لم تفقد الرغبة في اكتشافه ومعرفته! والدليل على ذلك أنها أعادت المحاولة مرة أخرى، لكن من خلال ترجمة أخرى لمترجم إنجليزي مسلم هو: "محمد مارمادوك بكثول". وتقول "مارجريت" إنها ما أن فتحت الترجمة الجديدة، وقرأت بضعة أسطر، حتى غمرها الشعور بأنها تقرأ وحياً منزلاً من السماء!

وهذه الشهادة تبرز للعيان الفرق الشاسع بين ترجمة "المبشر" وترجمة "المسلم"!

يقول "بكثول" في الفقرة الاولى من مقدمة ترجمته: إن الهدف المنشود من وراء هذه الترجمة هو تقديم معاني القرآن الكريم، كما يراها المسلمون، إلى القراء الذين يتكلمون الإنجليزية". ويقول: إن ترجمة أي كتاب سماوي لا يجوز أن تُجرى بأيدي أناس لا يؤمنون بهذا الكتاب. ولذلك أخذ "بكثول" على عاتقه القيام بتلك المهمة الكبيرة، بعد أن أيقن أن الترجمات التي وُضعت قبل ذلك، بأيدي غير المسلمين، تعمدت الإساءة إلى الإسلام والمسلمين، واستخدمت لغةً غير لائقة، وغير قادرة على التعبير عن المعاني القرآنية. وهذا هو السبب الذي جعل العلماء المسلمين لا يعتمدونها. و"بكثول" نفسه لا يعتمدها ولا يقرها، ويؤكد أنها خاطئة، ولا تمثل معاني القرآن الكريم ولا تنقلها بأمانة إلى القارئ الإنجليزي. وهو قد بذل

أقصى جهد ممكن لتلافي المناقص في تلك الترجمات؛ ومع هذا فإنه ينبه القارئ إلى أن ترجمته: "ليست القرآن المجيد، تلك المعجزة البلاغية التي يستحيل على البشر محاكاتها، والتي تستطيع، بأصواتها وأنغامها، أن تُشجي القلوب وتبكيها؛ والتي تقشعر لها جلود الذين آمنوا". إن ترجمته، كما يوضح هو نفسه، هي مجرد محاولة لتقديم معاني القرآن الكريم، وربما "بعض" جمالياته وبلاغته، بالإنجليزية. ومن المستحيل في رأي "بكثول" أن تحل الترجمة محل القرآن الكريم في نصه العربي، ولا هو قصد أن يجعلها تحل محله.

وأدركت "مارجريت" عندئذ لماذا كانت ترجمة "سال" ظالمة ومتحيزة. وبعد ذلك أبت أن تقرأ أية ترجمة أخرى غير ترجمة "بكثول"، مع العلم بأنها كانت قد عرفتْ ترجمات الأساتذة: يوسف علي، ومحمد علي اللاهوري، وعبدالماجد الدارياباديي.

وكانت "مارجريت" سنة ١٩٥٩ قد بلغت الخامسة والعشرين، ونضجت علميًا وثقافيًا، وأحاطت بحقائق عديدة ومهمة عن الإسلام وعن الموقف الثقافي في العالم كله، وعن الصدام بين الثقافة الأوربية، العلمانية المادية، وبين الثقافة الإسلامية، الدينية الإيمانية، الأمر الذي مكّنها من نقد الترجمات الإنجليزية للقرآن الكريم.

فهي تقول إن ترجمتي "يوسف علي" و "اللاهوري"، كانتا خاطئتين، لأنهما دأبتا على محاولة تفسير القرآن الكريم بحيث تجعله يوافق مبادئ الثقافة المادية السائدة في أوربا وأمريكا؛ وذلك منهج مرفوض كليةً من جانب "مارجريت"؛ وسوف تظل طوال حياتها، وفي كل مؤلفاتها، تتصدى له بالنقد دون هوادة، بوصفه محاولة خاطئة لقسر الإسلام قسراً على التوافق مع الفلسفة المادية التي تناقضه. وفضلاً عن هذا فإن الترجمتين كانتا ضعيفتين من الناحية اللغوية. وعلى الرغم من أن "الدارياباديي" حاول أن يحاكي الأسلوب اللغوي المتبع في "إنجيل الملك جيمس"، وعلى الرغم من أن شروحه كانت ممتازة، خصوصاً في مسائل علم الدين المقارن، وعلى الرغم من أنها تعترف بأنها تعلمت الكثير من ترجمته، فقد ظلت ترجمة

"بكثول" هي الأثيرة لديها، "إلى يومنا هذا " - أي سنة ١٩٧٨ حين كتبت قصتها هذه - قصة اكتشافها للقرآن الكريم.

والسؤال الذي يتبادر إلى الأذهان هنا هو: لماذا تفوقت ترجمة "بكثول" لدى "مارجريت" على هذا النحو البارز ؟

تجيب هي قائلة: إن "بكثول" اصر على الإبقاء على كل ما من شانه أن يميز الإسلام من غيره، وعلى كل ما يُشعر القارئ بالهوية الاعتقادية الفريدة له، ولم يحاول أن يطمس أي مفهوم أو مبدأ إرضاءً للأوربيين. وبعبارة أخرى: لم يقع "بكثول" في شراك "المدرسة التوفيقية" كما وقع "يوسف علي" أو "اللاهوري"، أو غيرهما!

من ذلك - مثلاً - أن "بكثول" لم يستخدم لفظ " God " أبداً، بل دأب على استخدام لفظ الجلالة: "الله". لأن مفهوم هذا غير مفهوم ذاك. وهذا المنهج كفيل بأن يثير انتباه القارئ الأوربي إلى تمايز العقائد الإسلامية، ويقربه من حقائقها.

هذه الترجمة الأثيرة لدى "مارجريت" رافقتها طوال المدة التي قضتها في المستشفيات، من مارس ١٩٥٧ إلى ابريل ١٩٥٩، ولم تفارقها أبداً، ولم تكف عن درسها وقراءتها، حتى أبْلَتْ منها ست نسخ!! وتدعو "مريم" لـ "بكثول" وتسأل الله له المغفرة لقاء ما أسْدَاهُ إليها، وإلى غيرها من قراء الإنجليزية، من خدمة جليلة بتلك الترجمة الأمينة، الدقيقة، الرخيصة الثمن. وتقرر صراحة بأنه لولا تلك الترجمة لما عرفت كتاب الله على حقيقته، ولما قدرته حق قدره.

ومضت فتاتنا المدهشة على طريق القرآن شوطاً جديداً، مثيراً!

فبعد أن تعافتْ، وغادرت المستشفى سنة ١٩٥٩، دأبت على الدرس والمطالعة في أوقات فراغها. وقد وجدتْ في القسم الشرقي من مكتبة نيويورك العامة الكثير من الكتب عن الإسلام. وأهمها على الإطلاق ترجمة كاملة لـ "مشكاة المصابيح"، بقلم مولانا فضل الرحمن الكَلْكُتّي - من كلكتا - وراحت تلتهم الصفحات في نهَم،

وادركت، بعد قليل، ان الإدراك السديد المفصَّل لآي القرآن لا يمكن أن يتيسر إلا بمعرفة الأحاديث النبوية التي تتصل به وتشرحه، ولا يمكن تفسير القرآن الكريم تفسيراً صحيحاً دون معرفة اقوال النبي ﷺ - الرسول الذي تلقى هذا الكتاب عن ربه ليبلغه إلى عباده. وتلك حقيقة منهجية أساسية في علم أصول التفسير.

ويبدو هنا بوضوح تأثر "مارجريت" بكتاب الأستاذ محمد أسد (ليوبلد فايس سابقاً): "الإسلام على مفترق الطرق"، حيث يعرض لهذه الرابطة العضوية الوثيقة (بين القرآن الكريم والسنة المطهرة) بالتحليل والإثبات.

وتصل "مارجريت" بدراستها للسنَّة النبوية إلى الحقيقة الإسلامية الكبرى القائلة إن إنكار السنَّة النبوية إنكار للقرآن، لأن القرآن نفسه يفرض على المؤمنين به طاعة الله وطاعة رسوله؛ في قول الله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ [النساء: ٥٩].

قالت "مارجريت": بعد اطلاعي على "مشكاة المصابيح سنة ١٩٥٩ آمنْت بأن القرآن الكريم وحي منزل من عند الله. فما الذي وَجَدَته في القرآن والسنة فجعلها تؤمن بأن القرآن وحي منزل من السماء؟!

تقول "مارجريت": إن ما اقنعني بأن القرآن لا بد أن يكون وحياً من عند الله، وليس تاليفاً وضعه محمد - ﷺ - كما يزعم "جورج سال" وزمرة المبشرين والمستشرقين الحاقدين على الإسلام، هو: الإجابات المقنعة التي يقدمها لمشكلات الحياة الكبرى، تلك التساؤلات التي لم أعثر لها على حل في أي دين آخر أو أية فلسفة أخرى. (وما أكثر الفلسفات التي عرفتها "مارجريت" عبر تطورها الروحي!).

وتقول "مارجريت" إن عقيدة الآخرة، والبعث والجزاء، ربما كانت أول التساؤلات وأخطرها. وتقول ايضاً: إنها في اثناء طفولتها كانت تخشى الموت بصفة عامة، وموتها هي ذاتها بنوع خاص! وكانت تفزع من رؤية الموت في المنام، وقد

تستيقظ صارخة ! وكانت تسأل والديها لماذا يتحتم أن تموت، وماذا يحدث عقب الموت؟ وكانا يقولان لها إنه ينبغي أن تتقبل الموت بوصفه شيئاً لا مفر منه، وكانا يخففان من وقع الجواب فيقولان إن العلوم الطبية تتقدم، ومن المحتمل أن تعيش مائة سنة !

وكانت أسرتها وأقرباؤها قد كفروا بالبعث والحساب والجنة والنار، واعتبروا ذلك كله من الأفكار البالية التي عفا عليها الزمن. وبحثت "مارجريت"(١) في التوراة لكي تعثر على مفهوم واضح للآخرة، ولكن دون جدوى. وقد وَجَدَتْ الأنبياء والقديسين والحكماء جميعاً ينالون ما يستحقون من الثواب أو العقاب في هذه الدنيا. وقصة "أيوب" عليه السلام أنموذج حسن لهذه الخصيصة التوراتية. فهو قد فقَدَ كل ما كان يملك، وابتلاه الله بمرض كريه؛ وكان يبكي في حزن ويتساءل: يا رب، لماذا تبتلي الطيبين بالعذاب؟ وفي نهاية القصة التوراتية يعيد إليه الله كل ما خسره، دون أي ذكر للثواب الأخروي !

وعلى الرغم من أنها وجدتْ ذكراً للآخرة في العهد الجديد، فإنها تصرح بأنها وجدتْ تصور الآخرة غامضاً وملتبساً إذا ما قورن بالصورة القرآنية المحددة والمفصلة.

ولم تجد "مارجريت" جواباً لمشكلة الموت في اليهودية التقليدية؛ لأن التلمود يقول إن: أسوأ حياة خير من أحسن موت ! وكانت فلسفة والديها تقتضي أن يتجنب المرء ذكر الموت ما وسعه، ويستمتع بالحياة قدر طاقته. وطبقاً لفلسفتهما كان هدف الحياة هو اللذة والسعادة والمتعة التي يمكن أن تتحقق من خلال تعبير الإنسان عن نفسه وعن مواهبه وقدراته، ومن خلال حب الأسرة، وصحبة الأصدقاء، ووسائل اللهو والتسلية المتوفرة في أمريكا الغنية. وكانا يؤكدان هذا المنهج بوصفه الضمان لاستمرار سعادتهما ورفاهيتهما.

وتعلق "مارجريت" على ذلك بكلام عميق، وصادق، فتقول إنها اكتشفت

---

(١) التوراة تنفي البعث والحساب. (المؤلف).

من خلال تجاربها المريرة: "أن الاستغراق في البحث عن السعادة لا يفضي إلا إلى التعاسة، وليس بوسع الإنسان أن ينجز أي شيء نبيل، أو ذا قيمة حقيقية، إلا عن طريق الإيثار والتضحية بالنفس. وقد كنت منذ طفولتي أهفو إلى تحقيق شيء مهم له مغزى. وأهم ما يهمني هو أن أتحقق قبل أن أموت أنني لم أضيع حياتي هَدْراً، في الخطايا والمعاصي والأفعال التافهة، جرياً وراء أشياء عديمة القيمة. كنت طوال حياتي إنسانة جادة في تفكيرها. ولذلك كنت أستنكر التفاهة التي تميز الثقافة المعاصرة بوصفها الخاصية السائدة فيها".

فوالداها يؤمنان بمذهب اللذة والسعادة الدنيوية، لأنه لا لذة ولا سعادة بعد الدنيا! وهي تؤمن بأن الجري وراء اللذات لا يورث صاحبه إلا الشقاء! وهي تقول إن تلك نتيجة تجاربها. غير أن فلسفة الأخلاق في بعض مذاهبها تزعم ذلك. ووالداها يؤمنان بأن كل شيء نسبي، متغير، على حسب مذهب السوفسطائيين القدماء ومذهب "نيتشه" في العصر الحديث. وهي تؤمن بأن هناك قيماً ثابتة مطلقة لا تتغير. وهذا هو المذهب الإسلامي في الأخلاق؛ وقد علمها القرآن الكريم أن ما آمنت به حق، وموجود: "فكل عمل يؤديه العبد بنية الفوز بمرضاة الله يستحيل أن تتغير قيمته بتغير الزمان".

والحق أن مشكلة النسبية " و "الإطلاق" في القيم الأخلاقية تمثل نقطة مركزية في الفكر الفلسفي المعاصر. والمذهب الإسلامي يؤكد أن العدل والوفاء بالعهد، وبر الجار، والصدق والوفاء للصديق، وغيرها من القيم الأخلاقية، هي قيم ثابتة مطلقة كالحقائق الهندسية وكان هذا المذهب من الإيجابيات التي جذبت "مارجريت" إلى الإيمان بالقرآن كوحي منزل من السماء. وهذه القيم المطلقة جزء من شريعته. وأساسها الذي لا قيام لها بدونه: الإيمان بالبعث والحساب ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

مريم تواجه المتاعب

اعتنقت "مريم" الإسلام، إذن؛ وعندئذ واجهتها المتاعب !

تقول في أسف: لقد اعتبرتني أسرتي متعصبة، وكذلك صديقاتي. "ومرد ذلك إلى أنني كنت لا أستطيع أن افكر في شيء أو أن أتحدث عن شيء غير الإسلام" – دينها الجديد القويم! وكان الدين بالنسبة لهم مجرد هواية !! وعلى نقيض ذلك كانت "مريم" – بعد أن درستْ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على يقين أنهم مخطئون، لأن الدين ليس هواية، بل هو الحياة ذاتها.

وعلى هذا كان التصادم أمراً حتميًّا: هم يتهمونها بالتعصب، وهي تصفهم – في أدب!– بأنهم مخطئون. ولو قالت إنهم كانوا علمانيين لا دينيين لما جاوزت الحقيقة. وتقول "مريم" في وصف موقفها (حتى قبل أن تقطع هذه الأشواط الطويلة في طريق القرآن) إنها كانت دائماً، ومنذ فترة المراهقة، وإلى يوم أن هاجرت إلى الباكستان، إنسانة "مختلفة"، رافضة لأساليب الحياة الأمريكية. كانت تعيش بلا أمل، لا تصلح لأي شيء. كانت شابة جادة، لا تكاد تفارق كومة الكتب في المكتبة، تمقت السينما والرقص وموسيقى "البوب"، ولا تعرف كيف تستمتع بحياتها، ولا تشارك في الحفلات المختلطة، ولا تهتم بالجمال وأدوات الزينة، والحلي، والملابس "الموضة". ومثل هذه الفتاة "المباينة" للنمط السائد لابد أن تُنبذ في المجتمع. وهذا هو ما حدث لها !

وكانت تلك الضغوط الاجتماعية وراء الاضطرابات النفسية التي حاقت بمريم؛ وقد هددتها الأسرة بالمقاطعة إذا هي اعتنقت الإسلام؛ وكانت "مريم" تريد أن تعتنق الإسلام منذ عام ١٩٥٤ ، ولكن أسرتها أفلحت في تأخير إسلامها: "فلقد حذروني بأن إسلامي سوف يعقد حياتي، لأن الإسلام ليس جزءاً من المشهد الثقافي الأمريكي، كالمسيحية واليهودية. وأخبروني بأن إسلامي سوف يقطع صلة أسرتي بي، وسوف يعزلني عن المجتمع. وفي ذلك الوقت لم يكن إيماني من القوة بحيث

يصمد لتلك الضغوط. وقد اشتد بي المرض، جزئيًا، نتيجة لذلك الاضطراب الداخلي، بحيث اضطررت إلى قطع دراستي في الكلية قبل أن يحل وقت تخرجي بفترة طويلة" .

كان والد "مريم" - المستر هربرت ماركس- وكذلك أمها، عاجزين عن فهم التحول الخطير الذي وقع لابنتهما. لماذا ترفض الثقافة التي نشأت عليها؟ ولماذا تعادي الصهيونية ؟ والظاهر أنهما ظنا أن المعارضة والرفض والعناد خطأ، وأن إعطاءها الحرية لتقرر لنفسها ما تشاء كفيل بمعالجة الموقف. ولما لم يجدا أثراً لذلك سوى اقتراب "مارجريت" من الإسلام أكثر وأكثر، حاولا تثبيط عزيمتها، بل بلغ الأمر حد الابتزاز والتهديد. وفي نهاية الأمر أكدا لها -كما تقول في أدب جم -: "إنهما لن يقفا في طريق إسلامي، أو يضعا العقبات على الطريق الذي يسعدني ان أسلكه. وعلى الرغم من تعارض آرائي في كل أمر تقريباً، مع آرائهما، كانا متسامحين، ومتفتحين، ولم يهدداني بالحرمان من الميراث أو قطع علاقتهما بي. هذا على الرغم من ان اليهودي التقليدي يعتبر الابن الذي يتحول عن اليهودية إلى أي دين آخر كانه قد مات !" .

واحسب ان "مريم" هنا تتحدث عن والديها بادب الفتاة المسلمة البارة، المهذبة، بصرف النظر عن الحقائق ! فهي قد ذكرت أشياء أخرى، فيها تهديد، وفيها كيد وخبث، فيما سبق، وفي فصول أخرى من مؤلفاتها، تنقض هذه الصورة الطيبة المتسامحة لموقف والديها!

والسؤال الآن هو: ماذا صنع القرآن بهذه الفتاة المجاهدة ؟

ونجيب على هذا السؤال في إيجاز شديد فنقول: إن القرآن الكريم قد أنشأ من مريم جميلة إنسانة أخرى مختلفة إلى أبعد الحدود. وهذه هي مؤلفاتها العلمية والأدبية أمامي، وقد بلغت ٢٦ كتاباً، منها ثمانية كتب كبيرة، والباقي كتيبات؛ وكلها يبحث في مسائل إسلامية حيوية مهمة، كالتجديد، والإسلام في مواجهة

الغرب، والحضارة الغربية؛ كل ذلك ببصيرة نافذة، وعلى أساس من الدراسة الجادة، والمنهجية الصارمة. وبذلك صارت "مريم" سفيرة للإسلام في العالم الواسع الذي يتكلم الإنجليزية، فجزاها الله عن الإسلام خير الجزاء.

مريم جميلة تتحرى الرشد

أحسب أن القارئ الذي تابع ما سبق من قصة: "مريم جميلة من اليهودية إلى الإسلام" يدرك الآن بوضوح أنها لم تتحول إلى الإسلام بغتةً، وأن اعتناقها الإسلام كان النتيجة الطبيعية المنطقية لجهود عقلية وروحية كبيرة، متواصلة، وسط أحراش الغابة الثقافية الأمريكية وادغالها: من الأديان السماوية، والفلسفات المادية، والعلمانية، والبراجماتية، والجمعيات الإلحادية، والبهائية، والصهيونية !

وقد اتصلت أخبار الإسلام بمسامع الطفلة الصغيرة "مارجريت" منذ كانت في العاشرة من عمرها. وكانت وقتئذ في مدرسة الأحد اليهودية. وتقرر فتاتنا أنها افتتنت بالعلاقات التاريخية بين العرب واليهود، كما جاءت في الكتب الدراسية المقررة. وقد عرفت منها أن سيدنا إبراهيم عليه السلام كان أبا العرب و اليهود جميعاً. والظاهر أن بعض المعلومات الصحيحة قد وردت في تلك الكتب عن إجارة المسلمين لليهود الفارّين من اضطهاد أوربا المسيحية في العصور الوسطى في الأندلس، الأمر الذي غرس الحب والإعجاب للمسلمين في قلب طفلتنا الساذجة البريئة.

والحق أن تسامح المسلمين، وقبولهم للآلاف من اللاجئين اليهود إلى أرض إسبانيا المسلمة - الأندلس - هو من الأعمال المجيدة، الباهرة، التي تستحوذ على الإعجاب والتقدير.

وهكذا يمكن القول: إن مرحلة تحرّي الرُّشد قد بدأت في حياة "مارجريت" منذ العاشرة من عمرها (سنة ١٩٤٤ تقريباً) لتمتد إلى ٢٤/٥/١٩٦١، وهذا هو اليوم الذي أشهرت فيه إسلامها.

ويلاحظ الدارس لظاهرة تحول الأمريكيين والأوربيين إلى الإسلام في العصر

الحديث امتداد فترة تحرّي الرُّشد امتداداً ملحوظاً. فالصفوة التي اعتنقت الإسلام لم تفعل ذلك إلا بعد دراسات واسعة عميقة، ومناقشات متشعبة، وموازنات دقيقة، موضوعية، بين الإسلام والفلسفات المختلفة. حدث هذا في حياة كل من: محمد أسد، وناصرالدين دينيه، ومحمد مارمادوك بكثول، والبروفيسور توماس بالانتاين إرفنج، والدكتور مارتن كنجز، والسيدة فاطمة هيرين ساركا، ورجاء جارودي، والدكتور مراد هوفمان وغيرهم. ولم يحدث قط أن تحول مفكر أو كاتب أو مثقف، إلى الإسلام بغتةً، بدون دراسة أو بحث دقيق، كما زعم الدكتور فؤاد زكريا في مقالاته المعادية للصحوة الإسلامية. بل إن ظاهرة تحرّي الرُّشد قبل اعتناق الإسلام ملموسة بوضوح كبير في السيرة النبوية الشريفة، وتمتد إلى أعماق التاريخ الديني فيما قبل الإسلام. حتى سحرة فرعون الذين آمنوا بسيدنا موسى ودينه، لم يتحولوا بغتةً، أو دون مناقشة، كما قد يبدو لأول وهلة. فقد كانت هناك فترة طويلة بين لقاء سيدنا موسى وفرعون مصر، وبين "يوم الزينة" الذي ضربه الطاغية موعداً للحظة التحدي. والأرجح أن أولئك السحرة ناقشوا الموضوع، وعقدوا العزم على الإيمان بالله إذا أثبت موسى- عليه السلام - عُلوَّ يده على سحْرهم. وهذا هو ما حدث، وهو ما صوره القرآن الكريم في سورة "طه"؛ قال تعالى ﴿ **قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ** ﴾ [طه: ٦١، ٦٢] ولما ألقوا حبالهم وعصيهم، وخُيِّل إليه أنها تسعى، أمره الله تعالى أن يُلقي ما في يمينه، ففعل، فأخذت (تلقف ما صنعوا) ﴿ **فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ** ﴾ [طه: ٧٠] ولما هددهم الطاغية بالصلب والبتر والتمزيق، لم يهتزوا، و﴿ **قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** ﴾ [طه: ٧٢] فهذا الإيمان الجسور وليدُ التحري والفحص منذ اللقاء الأول إلى "يوم الزينة".

هذه الظاهرة القديمة المتجددة، في تاريخ التحول إلى الإسلام، تكررت في حياة "مارجريت". فقد عرفتْ الإسلام منذ طفولتها، وأخذت تجمع المعلومات، وتدرسها؛ وظلت تتأرجح مقتربة من الإسلام حيناً، ومبتعدة عنه حيناً آخر، تحت تأثير الظروف الثقافية والضغوط الاجتماعية والمادية.

وقررت أن تعتنق الإسلام بعد دراسة استمرت حوالي عشر سنوات (١٩٤٤– ١٩٥٤)، ولكن أسرتها نجحت في ردها عن دين الله. وظلت "مارجريت" تفتش وتفحص، حتى لم تعد تطيق البقاء خارج عقيدة الإسلام لحظة واحدة، فأشهرت إسلامها يوم ٢٤ / ٥ / ١٩٦١، وكان عليها أن تتحمل النتائج، وأن تصمد للضغوط الهائلة، وأن تردد قول أولئك المؤمنين العظام في وجه فرعون مصر ﴿ **فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ** ﴾ [طه: ٢٧٢] وقد فعلَت !

الاتصال بالمسلمين

بعد أن اقتنعتْ "مريم جميلة" بالإسلام، أشهرت إسلامها رسميًا، وشرعت تتعلم العبادات الإسلامية، وتحاول أن تعيش في نيويورك بدينها الجديد. فماذا حدث؟

يوم عيد الأضحى المبارك، الموافق يوم ٢٤ / ٥ / ١٩٦١ قصدت "مريم" إلى مقر البعثة الإسلامية في "بروكلاين"، وشهدت شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، في حضور شاهدين من أصدقائها من المسلمين، وقد أعطاها الشيخ داود إسماعيل فيصل شهادة رسمية تثبت اعتناقها الإسلام واتخاذها اسم "مريم جميلة" بدلاً من "مارجريت ماركس".

وتقرر "مريم" أن أهم تغيير تحقق لها بعد اعتناق الإسلام هو تحول عقليتها من عقلية كافرة إلى عقلية مؤمنة [1] وجوهر العقلية المؤمنة، كما تصفها هي بحق، هو

---

(1) Islamic Culture; P. 5

النظر إلى الإنسان بوصفه عبداً لله تعالى. فهذا هو معنى الإسلام نفسه أعني الاستسلام لإرادة الله تعالى؛ فهو سبحانه خالق الكون كله، وهو سيده الأعلى دون شريك. وتعتبر "مريم" أن اعتناقها الإسلام هو أكثر أعمالها كلها إيجابية ومعقولية. وهي تعتقد أن الإسلام هو البلْسم الشافي للصحة العقلية [١] ولا احد في اعتقادها يمكن أن يتحمل أهوال تجربة التحول إلا أولئك الذين لا يرضون عن عقائدهم، والذين ينشدون العثور على فلسفة للحياة ترضي أرواحهم وعقولهم: "وإنني لو لم أقاسِ العذاب الوجداني الأليم، ولو لم أعانِ الأمَرّين من عدم التوافق مع أسرتي ومجتمعي، لما بذلت تلك الجهود الجبارة في سبيل الفوز بفلسفة للحياة تحقق لي الرضا". [٢] تشير بذلك إلى صنوف المعاناة التي مرت بها خلال سبعة عشر عاماً من تحرّي الرُّشد!

وأخذت "مريم" تتردد على المركز الإسلامي في نيويورك، حيث كان الدكتور نور الدين شريبة، وهو متخرج من الأزهر، يعلمها أداء الصلاة باللغة العربية. [٣] وتعد هي نفسها لصيام شهر رمضان المعظم.

وكانت "مريم" على صلة بمسجد واشنطن. وقد سافرت إلى هناك وتحدثت إلى الإمام (الدكتور محمود حب الله) وهو أيضاً متخرج من الأزهر. وقد أحْزَنَها أن السلطات في واشنطن لم تكن تسمح بالأذان حرصاً على راحة السكان. ولم يكن المسلمون يصلون فيه إلا صلاة الجمعة فحسب!

ومن الطبيعي أن توقّع "مريم" كل مراسلاتها ومكاتباتها باسمها الجديد. وهذا هو ما أرادته. وهنا تواجهها أول صعوبة. ذلك لأن أسرتها رفضت الاعتراف بالاسم "العربي!" الجديد، وأصرتْ على مناداتها باسم "مارجريت". ولم تكن "مريم" عنيدة، ولا عاقّة لوالديها، فلم تصر على اسمها الإسلامي.

---

(1) Correspondence; P.75

(2) Ibid

(3) Ibid; P.12

ثم أضيفت صعوبات أخرى مصدرها الأسرة أيضاً !

تقول "مريم" : "إن والدي، الذي يعمل بائعاً، ووالدتي التي تعمل مشرفة اجتماعية محترمة جداً، يعتزمان التقاعد العام القادم (١٩٦٢) . وبعد التقاعد سيشعران حتماً – بسبب انخفاض دخلهما – بأنهما مضطران إلى قطع المعونة المالية عني . ومما يزيد الأمور سوءاً، أنهما يريدان ترك الشقة ذات الحجرات الأربع التي نقطنها منذ شهر سبتمبر ١٩٣٩ حتى الآن، وبيع الأثاث وأدوات المنزل، ثم السفر والتنقل من مكان إلى آخر، بقصد الاستمتاع، إلى أن يُقعدهما المرض، أو يحل أجلهما . ونظراً لأن والديّ يعلمان يقيناً السبب الذي يجعل من غير الممكن أن نعيش معاً في سلام وتناغم (وهو إسلامها !)، فإنهما لن يسمحا لي بمصاحبتهما . وحتى لو سمحا لي بذلك، فإنني سوف أشعر بتعاسة شديدة وإحباط، إذْ أعيش العيش الذي يحبانه، والذي لا يزيد بحال عن تحقيق السعادة الدنيوية، التي تبدو لي زائفة وفارغة ولا معنى لها"(١) .

فما تفسير هذا الكلام ؟ هل هذه الخطة من جانب الأسرة لا صلة لها بإسلام ابنتها ؟ أم أنها محاولة جديدة لردها عن الإسلام ؟

مريم تقول إن والديها متسامحان . ولم تصدر عنها كلمة واحدة ضدهما . والحق أنهما كانا غير مباليَيْن بالدين؛ ولقد كانت الأسرة كلها ملحدة، كما مرَّ بنا . فلماذا هذه الخطة التي تحرم "مريم" من المسكن ومن الإعانة المالية ومن الأسرة كلها؟ لقد نجحت الأسرة مرة في ردع الفتاة المؤمنة وصدها عن الإسلام . فهل نخطئ إذْ نعتقد أن هذه الخطة تبتغي رد "مريم" إلى الإلحاد أو إلى دين الكنيسة الموحدة بعد إسلامها؟! على كل حال، ومهما أحسنا الظن، فإن ما أرادته الأسرة كان بمثابة تهديد حقيقي لمريم بأنها لن تجد سوى الإعانة التي يقدمها الضمان الاجتماعي في المدينة . ولقد كانت تفضل الموت على تلك الحياة البائسة؛ ولولا إيمانها بالإسلام، كما تصرح، لأقدَمَتْ على الانتحار!

---

(1) Correspondence; P. 71-72

فلتبحث "مريم" عن عمل. ولكن أي عمل ؟

لقد كانت مشكلة "مريم" -أولاً- أنها لا تجيد أي عمل. وليس لها أية اهتمامات تجارية. ولم تحصل على تدريب في أي تخصص أو حرفة. ولا هي حصلت على أي دبلوم. حتى لقد ضاع منها الأمل في الحصول على عمل. وأحست بأنها لا تستطيع العيش في مجتمع نيويورك اعتماداً على الإعانة الضئيلة التي تحصل عليها من الضمان الاجتماعي: "فلا أمل لي في أن أجد هنا حياة منتجة، مفيدة وأمينة، تتفق مع ميولي"(١).

إذن يتحتم أن تجد حلاً. ولقد شهدَتْ بنفسها كيف اضطر طالب يهودي في جامعة نيويورك إلى الارتداد عن الإسلام بسبب حاجته إلى المال. ذهبَتْ "مريم" إليه في الجامعة التي كانت تدرس بها ذات يوم، لتتحدث إليه، بعد أن أشهر إسلامه في المسجد، وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، قبل ذلك بأسبوعين. ولكن حين عرفت أمه بذلك أخذته إلى الحاخام الذي أرغمه على الردة عن الإسلام. وكانت وسيلة الضغط هي: قطع المعونة المالية عنه. ولما كان المسكين طالباً في الطب، وليس بوسعه إعالة نفسه لسنوات عديدة قادمة، وافق على الردة !!

ووجدت "مريم" أن أيسر الطرق للحصول على عمل هو أن تتدرب على الآلة الكاتبة. وحصلت بالفعل على التدريب في المدرسة التجارية؛ واعتقدت أن ذلك ييسر لها الفوز بوظيفة سكرتيرة أو ما شابه ذلك. وكانت واهمة إلى أبعد الحدود !

دارت "مريم" في نيويورك بحثاً عن عمل. وهي تحسن الظن بالعرب، فتذهب إلى "مركز الاستعلامات العربي" هناك معتقدة أن اهتمامها بالبلاد العربية والإسلام ربما كانت له قيمة. وقابلها المسئولون هناك، فأخبرتهم أنها كانت يهودية ثم تحولت إلى الإسلام. وصارحتهم فتاتنا الحرة المؤمنة من خلال المقابلة بأنها لا تؤمن بالقومية، ولذلك هي لا تتعاطف مع الرئيس ناصر أو قوميته العربية ! ثم تقول: "فقابلوني ببرود شديد جداً، فلم أعد إليهم مطلقاً".

---

(1) Correspondence; P. 71

وراحت "مريم" إلى مكاتب إدارة "الأصدقاء الأمريكيين للشرق الأوسط"، معتقدة أيضاً أن معرفتها بأحوال العالم العربي والإسلام ربما كانت لها قيمة عند أولئك الأصدقاء. لكنها أدركت هذه المرة أن هذه المنظمة وغيرها من المنظمات التي تهتم بأمور الشرق الأوسط يديرها ويوجهها -غالباً- الصهاينة والمبشرون؛ وبعضها تجاري بحت! وتخبرنا "مريم" بأنها دخلت في مناقشة مع الفتاتين الأمريكيتين الجميلتين الجالستين في المدخل. وعرفت منهما أنهما تعتقدان أن كل الأديان التقليدية قد ماتت، أو هي مجرد آثار مهجورة، وأنه لن يتيسر للعرب بلوغ التطور الاقتصادي أو رفع مستوى المعيشة إلا بعد أن يلقوا الإسلام خلف ظهورهم، كثوب قديم بالٍ!

ومن الجلي أن "مريم" هي التي تقود المحاورات أينما ذهبت لتتناول الشئون العربية والإسلام، يشجعها، شكليًا على الأقل، تلك اللافتات التي رفعت على تلك المكاتب، للإيحاء بالصداقة للعرب، أو الشرق الأوسط!

وفي جولاتها للبحث عن عمل قصدت "مريم" المركز التونسي التجاري بنيويورك. وكانت واجهة المركز جذابة بما وضعوا فيها من المشغولات اليدوية. ودخلتْ وألقتْ نظرة، فصُدمتْ صدمة أليمة! لقد دارت عينا الفتاة المسلمة المؤمنة في جوانب المكان، فلم تجد سوى الرفوف الطويلة، العديدة، من الأرض إلى السقف، وقد ازدحمت بقناني النبيذ والويسكي والروم والبيرة. وسألت موظفة الاستقبال عما إذا كانت تلك الخمور من إنتاج تونس. فأجابتها قائلة إن الإنتاج الكبير للخمور في تونس للاستخدام الداخلي والتصدير. وهو دليل على التقدم الاقتصادي الذي حققه الرئيس بورقيبة. ولما أفهمتها "مريم" أن تونس دولة مسلمة، وأن الإسلام يحرم الخمر، أجابت بأن الإسلام ليس سوى أثر بالٍ من العصور الوسطى، وأنه كلما اختفى بسرعة أكبر كان ذلك أفضل. ﴿ **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا** ﴾ [الكهف: ٥] والظاهر أن "مريم" سألتها عن جنسيتها، فأجابت بأنها فرنسية، وأردفت قائلة: إن توظيف الفرنسيين من قبل حكومة بورقيبة هدفه تحسين العلاقات مع فرنسا!

هذه هي البيئة الأمريكية التي عاشت فيها "مريم جميلة"، وهذه هي نوعيات البشر، والمؤسسات، والأفكار التي لقيتها في كل مكان ذهبت إليه: عداء للإسلام، وقيمه، ومبادئه، تلك التي آمنت بها "مريم جميلة". وكانت خطة الأسرة، وعدم وجود فرصة عمل، ومحاصرة الفكر الإلحادي لها، كل ذلك كان كفيلاً بتحطيم المقاومة الباسلة لديها تحطيماً تامًّا، وإخضاعها قسراً للفلسفة الإلحادية، أو على الأقل، لديانة الكنيسة الموحدة. وفضلاً عن هذا لم تجد "مريم" أحداً من المسلمين يمكنها أن تستعين أو تستأنس به. ولذلك كتبت "مريم" إلى الإمام المودودي تقول إن: "مشكلتي هي عدم وجود مسلمين في ضواحي نيويورك حيث أسكن أنا، ولذلك أشعر بالعزلة القاتلة".

فما المخرج من هذا البلاء العظيم ؟!

الخروج من العزلة

كانت مريم جميلة إنسانة فريدة وسط مجتمعها النيويوركي الصاخب اللاهي. كانت شاذة بمعايير وسطها العلماني المادي الذي لا يعرف الله ولا يذكر الآخرة. وكانت النتيجة الحتمية لهذه الحقيقة أن تعيش في وحدة، منعزلة رغم أنفها عن مجتمعها المضطرب. هذه العزلة فُرضت عليها منذ فترة المراهقة من عمرها، وقبل أن تعتنق الإسلام، ثم ازدادت إحكاماً بعد أن دخلت في دين الله، وأخذت على عاتقها أن تجدف ضد التيار المادي العلماني الإلحادي الهادر من حولها.

تقول "مريم" عن العزلة التي عاشتها منذ صباها إنها كانت مريرة. وهي لا تتجنى على أحد أو تلقي باللوم على الآخرين، بل ترد الأمر كله إلى مخالفتها، أو لنقل تناقضها، مع عادات مجتمعها وتقاليده. كانت "مريم" تقضي معظم وقتها في قراءة الكتب في المكتبة، ولم تكن تهتم بالجنس الآخر، والحفلات، والرقص، والسينما، والملابس، والمجوهرات، وأدوات الزينة. فمن ذا الذي يجاريها في هذا "الشذوذ ؟!"

وكانت فتاتنا تنظر إلى التدخين على أنه عادة سوقية وإهدار للمال، وهي لم تذق الخمر مطلقاً، على الرغم من أن المجتمع الأمريكي يحتم على الإنسان أن يتناول الخمر لكي يكون مقبولاً بين الناس، وعلى الرغم من أن والديها كانا يعتبران تناول الخمر في اعتدال من طيبات الحياة.

وهكذا لم تشاطر زميلاتها وزملاءها في الدراسة في أية اهتمامات. وكان لا مفر تبعاً لذلك أن تقضي سني دراستها قبل الجامعية من دون أصدقاء(١).

وقد خفف من حدة العزلة الاجتماعية لمريم جميلة أنها تعرفت على شابّة من بيت يهودي مثلها، في السنة الثانية في جامعة نيويورك، وكانت قد سبقتها إلى اعتناق الإسلام، كما كانت تشاطرها الاهتمام بالشئون العربية والإسلامية. وقد قدمت "مريم" – أو مارجريت – إلى عدد من أصدقائها المسلمين المقيمين في نيويورك. ومن المؤسف أن "مريم" لم تذكر لنا قصة تلك الفتاة المؤمنة بشيء من التفصيل!

ومرضت :مارجريت" وقضتْ المدة من ١٩٥٧ إلى ١٩٥٩ في المستشفيات. وهناك أقْسمتْ أن تعتنق الإسلام إذا شُفيت من المرض: "وبعد أن سُمح لي بالعودة إلى البيت أخَذْتُ أبحث عن كل الفرص والمناسبات من أجل مقابلة المسلمين في مدينة نيويورك. وكان من حُسْن حظي أن تعرفتُ على نخبة من خيرة الرجال والنساء. كذلك شرعت أكتب المقالات للمجلات الإسلامية، وأراسل – بكثافة – قادة المسلمين في جميع أرجاء المعمورة. راسلت المرحوم الشيخ البشير الإبراهيمي كبير العلماء في الجزائر، والدكتور محمد البهي، من الأزهر، والدكتور محمد حب الله، الذي كان وقتئذ مديراً للمركز الإسلامي في واشنطن (D.C.)، والدكتور حميد الله، من باريس، والدكتور سعيد رمضان، مدير المركز الإسلامي في جنيف، والسيد أبا الأعلى المودودي، وغيرهم".

وبهذه الصلات المباشرة مع المسلمين، وبتلك المراسلات مع قادة العالم

(1) Correspondence; P. 9

الإسلامي، خرجت "مريم" من عزلتها القسرية، ووجدت من يشاطرها اهتماماتها الإسلامية.

غير أن الحل النهائي لمشكلتها هذه لن يتحقق إلا بالهجرة إلى مجتمع مسلم، وهذا هو ما حدث في نهاية الأمر.

ومن المدهش حقًّا أن تحاول "مريم" طوال الشهور الأولى من عام ١٩٦١ الاتصال بالأستاذ سيد قطب. وتقول "مريم" إن "سيد قطب" الذي كان سجيناً في معتقلات عبدالناصر، لم يكن يستطيع أن يرد على مراسلاتها له، لكن أخته "السيدة أمينة قطب" كتبت إليها رسالة جميلة، وأخبرتها أن رسائلها قد سُلمت إلى المفكر المسلم السجين، وأنها تكتب نيابة عنه. وتقول "مريم" في حسرة ظاهرة: "يا لها من مأساة، أن يُضطهد الإسلام فيما يُسمَّى "بالدول الإسلامية" أقسى ممَّا يُضطهد في البلاد غير الإسلامية!" (١)

ولم تذكر "مريم" شيئاً عن فحوى مراسلاتها إلى زعماء المسلمين، باستثناء الإمام أبي الأعلى المودودي، فقد نشرت رسائله لها في كتاب خاص بعنوان: (Correspondence between Maulana Maudoodi and Maryam Jameelah; Published by Mohammad Y. Khan, Lahore; 1969).

وكان الإمام المودودي قد تلقى منها رسالة تشكو فيها من قسوة الوحدة؛ فرد عليها مقترحاً تشكيل جماعة إسلامية في أمريكا، أو الهجرة إلى بلد مسلم. ودعاها إلى الهجرة إلى لاهور (بباكستان) حيث يقيم مع أسرته، ووعدها بأن يقدم كل مساعدة إليها لكي تبدأ حياة إسلامية هادئة، آمنة، بريئة من العزلة، بل لقد ذهب إلى القول إنها ستجد من بين شباب "لاهور" المسلم مَنْ ترضاه زوجاً. فماذا كان موقف "مريم" من هذه الدعوة الكريمة؟ وكيف تعرفت -أولاً- على الإمام الكبير، رحمه الله؟ وما أثره عليها؟

---

(1) Correspondence; P. 35

كيف عرفت المودودي ؟

أجابت "مريم جميلة" على هذا السؤال في أول رسالة كتبتها إلى المودودي، فقالت: "إن مقالكم الرائع بعنوان: "الحياة بعد الموت" الذي نُشر في شهر فبراير عام ١٩٦٠ في مجلة "ديجست دربان الإسلامية" -في جنوب إفريقيا، كان أحسن شيء قرأته في هذا الموضوع على الإطلاق. وحين قرأتُ عنكم لأول مرة ضمن مقال "مظهر الدين صدّيقي": "الإسلام الطريق المستقيم"، الذي نُشر في نيويورك سنة ١٩٥٨، عن المسلمين في الباكستان، شعرتُ بالتعاطف الكامل معكم على الفور، على الرغم من أن الكاتب وصفكم وصفاً حاول به النيل من مكانتكم، لأنني أدركت أن الكاتب ينتمي إلى مدرسة "المودرنزم" التي تحاول إخضاع الإسلام لمبادئ الفلسفة المادية."(١)

إذن، من خلال مقال له، ومقال عنه، وعن باكستان، عرفت مريم فكر المودودي لأول مرة. وقد علمنا سلفاً اهتمامها الكبير بمسألة البعث، والحساب والحياة بعد الموت، والجنة والنار. وعندها دون ريب معرفة جيدة بها؛ وجاء مقال المودودي، بما ينطوي عليه من علم موسوعي، وأصالة لا تبارى، ليُشعر القارئة المثقفة الواعية "مريم جميلة" باقتدار الكاتب وعمقه. وفضلاً عن هذا أدركتْ "مريم"، كما يدرك أي قارئ آخر للإمام المودودي، مدى التزام الرجل بالإسلام في نقائه وصفائه، ورفضه القاطع لكل عمليات الغش والتوفيق الاصطناعية بين دين الله وبين الفلسفات المادية المناقضة له، ولحساب تلك الفلسفات في الحقيقة؛ فتقول له مريم: "لهذا كله احترمتكم، واحترمت ما تصنعون." (٢)

وتبدو (من تعقيب "مريم" على مقال "صدّيقي") نزعتها النقدية التي تُصفّي كل الشوائب التي تصادفها فيما تقرأ، فهي لا تَعُبُّ دون وعي، بل تزن، وتقوّم، وتصحح، وتقبل، وترفض، وفي جميع الأحوال، تبني قرارها على الحقائق

---

(1) Correspondence; P. 1

(2) Ibid; P. 8

الإسلامية. وهذه النزعة النقدية، بَدَتْ لنا من قبل في موقفها من "الحاخام كاتش"، إذْ رفضَتْ فكره الصهيوني، وقبلتْ نظرته الأخلاقية التي ترفض النسبية وتبني الأخلاق على القيم الثابتة المطلقة. والشيء نفسه نلقاه ضمن مواقفها من المجتمع الأمريكي. فعلى الرغم من الضغوط الهائلة للبيئة الاجتماعية، أبَتْ "مريم" في ثبات مدهش أن تذوق الخمر أو تدخِّن السجاير، أو تضيع وقتها في الرقص والتزين والحفلات الماجنة!

وحين كتبت إلى المودودي أول رسالة لم تكن تتوقع منه شيئاً أكثر من إجابة مقتضبة تعبر عن المشاركة الوجدانية بين شخصين يشتركان في الإيمان بُمثل عليا واحدة، ولم تتخيل أبداً أن مراسلاتها مع المودودي ستكون نقطة تحول كبرى في حياتها، كما حدث بعد ذلك.

لكن لا ينبغي أن نفهم خطأ أن المودودي هو سبب اهتمامها بالإسلام، أو الكتابة عنه، أو الدخول فيه. وهي التي تقول إن المودودي لم يكن بحاجة إلى أن يدعوها إلى اعتناق الإسلام، لأنها كانت قبل أن تبدأ مراسلته تقف على عتبة الإسلام، ثم تقول: "وكنتُ سالج إلى عالم الإسلام دون معرفة به." وأعتقد أننا لا نحتاج إلى مناقشة شيء كهذا بعد أن تابعنا تطورها الروحي المستقل.

لكن معرفتها بالمودودي أضافت الكثير إلى معلوماتها عن الإسلام؛ والحق أن أي قارئ، مهما اتسعت ثقافته، لا بد أن يضيف الكثير إلى معلوماته من قراءة كتب المودودي، بل لا بد أن يضيف البصيرة العميقة بالإسلام، والثقة المؤكدة في قدرته على تحقيق الكرامة والسعادة والأمن للإنسان، فضلاً عن مرضاة الله والسعادة الأخروية. وهذا بعض ما صنعته كتابات المودودي بالمهتدية "مريم جميلة". وقد جعله الله تعالى سبباً في تغيير مجرى حياتها تغييراً جذريًّا!

وبدراسة مؤلفات الإمام الكبير اكتسبت كتابات "مريم" أعماقاً جديدة ونُضجاً كبيراً.(١) وقد ألَّفتْ عنه كتاباً، فضلاً عن "المراسلات".(٢)

---

(1) Correspondence; P. II

(2) Who is Maudoodi ? MY. Khan; Lahore; 1973

وفي أولى رسائلها إلى الأستاذ الكبير عرفته بنفسها فقالت: "إنني فتاة أمريكية في السادسة والعشرين من العمر (في ٥ / ١٢ / ١٩٦٠)، شديدة الاهتمام بالإسلام بوصفه الأمل الوحيد لهذا العالم، إلى درجة أنني أريد التحول من اليهودية إلى الإسلام. ومشكلتي الكبرى هي عدم وجود مسلمين في "ضاحية نيويورك" التي أقطنها، ولذلك أشعر بعزلة رهيبة. ولهذا طلبتُ عنوانكم من المجلة التي نشرتْ مقالكم، لكي أراسلكم." ثم طلَبَتْ من الإمام أن يوافيها ببعض مؤلفاته، وعلى وجه الخصوص، كتابه: "عملية الثورة الإسلامية".

ووافاها الأستاذ المودودي بالكتب؛ ولم يقف عند حدود المشاركة الوجدانية، بل شرع على الفور يفكر لها في الحل المناسب لمشكلتها، بحيث يحفظ عليها دينها، فكتب إليها مراراً، في توسع كبير، وباهتمام صادق؛ وقد ختم رسالته الأولى بهذه العبارات الرائعة التي قال فيها: "والآن، لا يسعني إلا أن أعبر عن دهشتي السعيدة عن شيء معين: إنني أريد أن أعرف على التحديد كيف وأين استطاعت فتاة أمريكية أن تبلغ هذا التصور الصحيح الواضح للإسلام ؟!" وهكذا بدأت هذه العلاقة النبيلة الصالحة. وأما كيف وعلامَ انتهت، فجوابه فيما يلي من الفقرات!

اتصالاتها قبل الهجرة إلى باكستان

اهتم الأستاذ المودودي (عليه رحمة الله) اهتماماً كبيراً بأمر "مريم جميلة"؛ فعرض عليها الهجرة إلى "لاهور" حيث يقطن مع أسرته، وتعهد لها ولوالديها بأن يكون هو المسئول عنها بوصفها عضواً في أسرته، وكواحدة من بناته، إلى أن يوفقها الله إلى الزوج المسلم الكفء الذي ترضاه.

وقال لها الإمام الراحل في أولى رسائله إليها (في ٢١ / ١ / ١٩٦١): "أنت مسلمة حقًّا، على الرغم من أنك لا زلت تفكرين في التحول إلى الإسلام. فإن أي شخص يؤمن بأن الله واحد لا شريك له، وأن محمداً ﷺ خاتم رسله إلى خَلْقه، ويؤمن بأن القرآن كلام الله، ويؤمن بالآخرة، إنما هو مسلم حقيقي، بقطع النظر عما

إذا كان قد وُلد في بيت يهودي أو مسيحي أو وثني. فدخولك الإسلام لا يحتاج إلى تعميد خاص. وليس عليك بعد النطق بالشهادتين سوى اختيار اسم إسلامي -كعائشة أو فاطمة مثلاً- وإعلان إسلامك على الملأ، ليعلم الناس جميعاً أنك قد أصبحت عضواً في جماعة المسلمين العظيمة. وعليك أن تحافظي على الصلوات الخمس اليومية." (١)

وقال لها أيضاً في الرسالة نفسها: "بينما كنتُ أتفحص مقالاتك شعرت كأنما كنتُ أقرأ أفكاري نفسها. وإني لآمل أن يكون شعورك مثل شعوري حين تتاح لك الفرصة لتعلم "الأردية" وقراءة كتبي. وإن هذا التعاطف المتبادل، وغياب التعارض بين أفكارنا، على الرغم من أننا لم نتعارف سلفاً، لهو نتيجة مباشرة لحقيقة أن كلينا استمد الإلهام من منبع واحد بعينه، هو الإسلام".

وكانت هذه الكلمات من عملاق الفكر الإسلامي هي "شهادة العالَمية" في الفكر الإسلامي لمريم جميلة، وهي تتجاوز مطامح الكثيرين من الأساتذة المتخصصين في الدراسات الإسلامية. وسوف نتعرف على هذه الحقيقة بوضوح أكبر حين نأتي إلى دراسة فكرها. ويكفيها فخراً خلوها من الغش العلمي، ومن الشعور بالدونية تجاه الفلسفات المادية. والنفاق الرخيص لدوائر النشر الرسمية.

وحين قصَّتْ "مريم" قصة تطورها الروحي، وتجاربها المريرة، على الإمام الراحل، أجابها بقوله: " لقد أدركتُ من خلال رسالتك، وقصة اعتناقك للإسلام، أن العقل الإنساني المتفتح، البريء من الفساد والتحيز، يستطيع أن يعرف طريق الله المستقيم، إذا ما ثابر وناضل في هذه السبيل"(٢) ولقد رأينا من قصة "مريم" كيف ناضلت لمدة سبعة عشر عاماً، تتحرى الرشد، بثبات، ومثابرة تثير الإعجاب، وعلى الرغم من كل الصعوبات والتهديدات، إلى أن عرفت طريق الله المستقيم. ويدرك الباحث من

Correspondence; P. 14 (1)

(٢) من رسالته إليها بتاريخ ٢٥/٢/١٩٦١.

خلال الأحداث، ومن دراسة كتبه وفكرها، أن عقلها كان بحق، كما وصفه الإمام الراحل، بريئاً من الفساد والتحيز، متفتحاً على الحقائق، مغلقاً في وجه الأباطيل.

ومضت الرسائل بين الأستاذ الكبير والمفكرة الشابة لمدة ستة أشهر تقريباً، دون توقف؛ ومن خلالها جرت مناقشات فكرية وثقافية ودينية، وأثيرت قضايا فلسفية، ومشكلات "مريم" الشخصية بطبيعة الحال.

وكان الإمام المودودي قلقاً على "مريم"، فأخذ يلفت نظرها إلى الأخطار التي تنجم عن عدم التوافق مع البيئة، وقال لها محذراً إن: "كل مزاياك تعد عندهم من المعايب!" ثم أعاد عليها الدعوة الكريمة بالهجرة إلى باكستان، وأكد لها تعهداته السابقة، وذكَّرها بقول رسول الله ﷺ "القابض على دينه في هذا الزمان كالقابض على الجمر". وكانت "مريم" في الحقيقة تعيش في قلب الجمر، وتتقلب عليه!

وفي رسالة لها بتاريخ ٢٢/٣/١٩٦٢ قالت للأستاذ: "لا ريب أنكم كنتم تتساءلون طوال هذه الشهور كلها عن سبب ترددي في القبول الفوري لعرضكم الكريم بتزويدي بكل عون ودعم ممكنيْن إذا أنا وافقت على المجيء إلى "لاهور" وحقيقة الأمر انني لم أستطع أن أستجمع من الشجاعة ما يجعلني أقطع جميع علاقاتي قطيعة نهائية بأسرتي، وماضيّ، وأن أتقدم في ثبات كي أدخل المجهول. هذا هو السبب في انني كلما سألتموني السؤال نفسه كنتُ في كل مرة أتجنب الجواب عليه في بساطة، على أمل أن يتحسن الموقف هنا. والآن، تحققت أنه كان أملاً كاذباً". واشتكَتْ له من العزلة، والبطالة، ثم قالت: "وكلما ذهبت أبحث عن عمل، قابلتْني وكالات التشغيل بالبرود نفسه في كل مرة". ثم حكتْ له عن خطط والديها، لبيع الشقة، وترك نيويورك، وقطع المعونة المالية عنها، وختمت رسالتها قائلة: "إنني أفضل الموت على الحياة في مثل هذه الضَّعة وهذه التعاسة. وإنني أعترف صراحة بانه لولا إيماني بالإسلام، لكنت انتحرت منذ سنوات".

وأعْلَنَتْ، أخيراً، قبولها لدعوة المودودي بالهجرة إلى لاهور. وبذلك بدأت مرحلة جديدة وخطيرة من حياتها!

تحذيرات المودودي وتعهداته

لا ريب أنه قرار خطير، أن تقطع الفتاة الشابة "مريم جميلة" كل علاقة لها بأهلها، وبلادها، وتهاجر إلى بلد لا تعرف فيه شخصاً آخر سوى المودودي ! إنه الدخول في عالم غير معروف لها؛ فلا بد من إمعان النظر، وإطالة الفكر والتروي.

وحتى يكشف لها الستار عن ذلك العالم "المجهول" بالنسبة لها، كتب إليها الأستاذ مذكّراً ببعض الفروق الأساسية بين البيئتين. وجاء في رسالته في ١٨ / ٤ / ١٩٦٢ بيان (أو لنقل تحذير) من أن الناس في "لاهور" لا يستخدمون مكيفات الهواء بل المراوح الكهربائية؛ وأن الحرارة في شهر يولية تصل ١٠٠ درجة فهرنهايت. كذلك اخذ يذكر "مريم" بالاستعداد للمتاعب الناشئة عن اختلاف اللغة، مع تبشيرها بأن زوجته تعرف الإنجليزية، وكذلك معظم أهل بيته، والكثيرون من الباكستانيين ! وأعطى الإمام لمريم معلومات عن أفراد أسرته، فذكر أن ابنتيه "حميراء" و "أسماء" في عُمر "مريم" تقريباً. أما "حميراء" فكانت في الثالثة والعشرين، وكانت تدرس للحصول على الماجستير في الأدب الإنجليزي. وكانت أسماء في التاسعة عشرة من العمر، وتدرس لنيل الليسانس في الاقتصاد. ونصحها بأن تحتفظ بجنسيتها الأمريكية مدة معينة.

ورسم لها الأستاذ خطة السفر عن طريق البحر؛ ودعاها إلى إحضار كل ما تستطيع من حاجياتها وأمتعتها. ورتب الأمور لكي يستقبلها بنفسه في كراتشي؛ وقال إنه إذا لم يستطع ذلك، فسوف يرسل "مالك غلام علي" سكرتيره الخاص نيابة عنه.

وكتب الأستاذ المودودي رسالة إلى المستر والمسز ماركس بتاريخ ١٨ / ٤ / ١٩٦٢ قال فيها إن "مريم" قد درست الإسلام منذ أعوام، وهما يعلمان ذلك، وأنها اختارت أن تعتنقه بعد بحث طويل وتأمل عميق. وقرر الإمام أنه بحسب ما جاء في رسائلها إليه، لم يعد يرى لها أي مستقبل في أمريكا، بل إن بقاءها في أمريكا في ظروف قاسية، لابد أن يدمر حياتها. ولذلك نصحها بالهجرة إلى بلد مسلم واتخاذه وطناً

لها. وقال إنها إذا اختارت باكستان فإنه يتعهد بأن يُدخلها في أسرته، لا كضيف عابر، بل كعضو دائم في الأسرة.

طلب الأستاذ المودودي من والدي "مريم" الإذن لها بالهجرة، وأكد لهما أنه هو المسئول عن حياتها في باكستان. ورد المستر ماركس بجواب بتاريخ ٢/٥/١٩٦٢ قال فيه أنه تأثر هو وزوجته بما جاء في رسالة الأستاذ المودودي، واعترف الرجل صراحة بأن "مريم" بعد إسلامها، وحماسها للدفاع عنه، تلقى صعوبات عملية في المجتمع الأمريكي، وأذن لها بالهجرة، على أمل أن تتهيأ لها في "لاهور" حياة سعيدة وذات مغزى. وأشار الوالدان إلى أن "مريم" لابد أن تمر بفترة "توافق" معقولة في البيئة الجديدة قبل أن تتخذ أية قرارات كبيرة، وتوقعا لها مستقبلاً ناجحاً ضمن أسرة المودودي استناداً إلى معرفتهما بها وبموقف المودودي أيضاً.

خاتمة سعيدة في لاهور

وهاجرتْ "مريم جميلة" إلى باكستان، إلى "لاهور"، لتعيش بين أسرة جديدة، أسرة مسلمة، يرعاها ويسهر عليها الأستاذ أبو الأعلى المودودي.

وكانت هجرة "مريم" حلقة جديدة على سُنة الهجرة الإسلامية التي بدأت بهجرة الرعيل الأول من صحابة رسول الله ﷺ ورضى الله عنهم، إلى الحبشة، والتي توّجتها جميعاً هجرة النبي الكريم ﷺ من مكة إلى المدينة. هاجرت مريم" مخلِّفةً المادية والعلمانية والإلحاد، باحثةً عن بيئة مؤمنة تحتضن إيمانها وترعاه. وقد عوضها الله تعالى خيراً، وهيأ لها المناخ الملائم لنمو عبقريتها الأدبية، فصارت من أعضاء النخبة الإسلامية الرائدة في مجال الفكر الإسلامي الحديث.

قالت المهتدية "مريم جميلة" بعد أن هاجرت: لقد فررت بديني إلى باكستان على الرغم من أنها، كسائر البلاد الإسلامية، تلوّث حياتها وثقافتها، من دون توقف، بالمفاسد المستوردة من أوربا وأمريكا. ذلك لأن في باكستان، مع ذلك، أعداداً من المسلمين الملتزمين بدينهم والذين يشكلون بيئة إسلامية صالحة، تيسر للمرء المسلم أن يحيا حياة إسلامية صحيحة.

وتقرر المهتدية "مريم جميلة" أن السعادة التي تحققت لها في حياتها الجديدة

ترجع إلى حقيقة أساسية مؤداها أن صفاتها الشخصية التي احتقرها المجتمع الأمريكي هي نفسها الصفات الفاضلة التي يقدرها الإسلام !

بقي أن نعلم أن "مريم" تزوجت من الأستاذ محمد يوسف خان، أحد الأعضاء البارزين في الجماعة الإسلامية في باكستان، والناشر المعروف في "لاهور" وكانت لديه زوجة أخرى، وأنجبت منه أربعة أولاد، دون أن تفتر همتها في الدراسة والبحث والكتابة.

مؤلفاتها

1- Islam versus the West ; 1962.

2- Who is Maudoodi ? 1973.

3- Islam and Modernism; 1977.

4- Islam and Western Society; 1978; 2nd Ed.

5- Correspondence Between Maulana Maudoodi and Maryam Jamelah; 1978.

6- Islam in Theory and Practice; 1978.

7- Islam Versus Ahl Al Kitab Past and Present 1978.

8- Western Civilization Condemned by Itself; 1979.

هذه بعض مؤلفاتها؛ وهناك عدد من الكتيبات نُشر في الربع الأخير من القرن الماضي. والكتاب رقم ٣ هو اهم مصدر أجابت فيه عن السؤال: لماذا اعتنقت الإسلام؟ وهو الذي استندت إليه في هذه الدراسة إلى جانب الكتاب رقم ٥ الذي يحتوي على معلومات مفيدة لهذه الدراسة.

ولا تزال السيدة مريم جميلة تواصل جهادها الادبي والعلمي. وهي موضع التقدير الرفيع من أمتها المسلمة. نسأل الله تعالى أن يبارك لها في نفسها وفي عملها وفي أولادها وفي زوجها، لكي تحقق المزيد من الإنتاج المثمر المفيد.

والله تعالى من وراء القصد

الفصل الثالث

المهتدي مراد ويلفريد هوفمان

أشهر إسلامه يوم ٢٥ / ٩ / ١٩٨٠م

حيـاتـه
هوفمان: العالم والدبلوماسي

وُلد الدكتور مراد هوفمان عام ١٩٣١م لأسرة كاثوليكية. ودرس الكاثوليكية في مدارس الجزويت، وتبحر فيها حتى عرفها حق المعرفة.

ودرس هوفمان القانون في جامعة ميونخ، ونال درجة الماجستير في القانون من جامعة هارفارد سنة ١٩٦٠ .

ولذلك يعتبر نفسه رجل قانون وإن مارس وظائف مختلفة. وأهم وظائفه: الدبلوماسية، حيث شغل مناصب عدة في وزارة الخارجية الألمانية منذ ١٩٦١ واستمر فيها حتى اعتزل العمل الدبلوماسي سنة ١٩٩٤ . وبدأ يحتك بالعالم الإسلامي مبكراً حين عمل بالسفارة الألمانية بالجزائر عام ١٩٦١ ولمدة عامين، ثم شغل مناصب دبلوماسية في بلاد أخرى، لكنه عاد إلى الجزائر سفيراً لبلاده سنة ١٩٨٧ - أي بعد اعتناقه للإسلام بحوالي سبع سنوات. وانتقل من الجزائر إلى "المغرب" سنة ١٩٩٠ ليعمل سفيراً لبلاده في الرباط، وتتوثق معرفته بالإسلام.

وكان الدكتور هوفمان قد شغل منصب مدير المعلومات في حلف شمال الأطلسي من ١٩٨٣ إلى ١٩٨٧ .

عرف هوفمان الإسلام والمسلمين في الجزائر والمغرب في حياتهم اليومية الواقعية بخيرها وشرها. وعرف الفكر الإسلامي في مجلة The Muslim World Book Review حيث عمل فيها ناقداً للكتب، وتلك كانت فرصة ثمينة لمعرفة الإسلام.

كذلك مارس الدكتور هوفمان نقد فن الباليه، بعد أن تضلع في دراسته وولع به وَلَعاً شديداً.(١)

---

(١) انظر: يوميات ألماني مسلم ص ٥٣ .

توجهاته الفكرية الباكرة

وقد ظهر توجه هوفمان الفكري مبكراً. ففي عام ١٩٥٠ و ١٩٥١ درس علم الاجتماع في جامعة "يونيون كوليج" الواقعة بالقرب من نهر "موهوك" في الجزء العلوي من ولاية نيويورك.

وينتقد هوفمان علم الاجتماع الذي كان يُدرّس في تلك الجامعة. فهو علم تجريبي بحت، يرفض الصورة المعروفة عن الإنسان في الفلسفة واللاهوت، ولا ينطلق من الدين أو الفلسفة في بحث وظائف الإنسان الاجتماعية وأنماط سلوكه، ولا يهتم بمعرفة الغاية من الحياة البشرية؛ وهو علم يعتبر الإلحاد بدهية. كما أنه يعتبر كل شيء نسبيًّا، بما في ذلك الحقيقة ذاتها، وبذلك يعيد الفلسفة السوفسطائية القديمة ويجدد فلسفة "نيتشه" النسبية الجذرية الشاملة. وهذه التوجهات هي التي أفضت إلى انهيار الأخلاقيات الجنسية وفتحت الطريق على مصراعيه "لنزعة الرياضة الجنسية الفاضحة السائدة في البيئة الدراسية (في نيويورك) التي كان يعيش فيها هوفمان."(١)

وفي إيجاز يرفض هوفمان المنظومة الإلحادية المنكرة للدين وللقيم الأخلاقية، وللحقيقة العلمية. وهذه المنظومة ليست سائدة في نيويورك وحدها أو في أمريكا وحدها، ولكنها سائدة في الغرب كله، في أوربا وكندا، واستراليا، وكل المجتمعات المتغربة السائرة وراء بريق الحضارة المادية. وهذا هو العنصر "الطارد" الفعال في عملية الانتقال العسيرة من المسيحية إلى الإسلام كما عاناها هوفمان وغيره من المفكرين الغربيين الذين اهتدوا إلى الإسلام.

مؤلفاته الإسلامية

ألّف الدكتور مراد هوفمان اربعة كتب عن الإسلام، هي:

١ - يوميات ألماني مسلم؛ سنة ١٩٨٥،(٢)

---

(١) يوميات؛ ص ١٧، ١٨.

(٢) ترجمة د. عباس رشدي العماري؛ نشر مركز الأهرام للترجمة والنشر؛ ط ١ سنة ١٤١٤هـ-١٩٩٣م (ولم يؤلف قبل إسلامه كتباً).

٢ – الإسلام كبديل؛ ١٩٩٣ [١].

٣ – الطريق إلى مكة؛ سنة ١٩٩٦ [٢]

٤ – الإسلام في الألفية الثالثة –ديانة في صعود؛ سنة ٢٠٠٠م [٣]

وذكر أنه كتب أيضاً:

٥ – نهج فلسفي لتناول الإسلام؛ سنة ١٩٨٣م.

٦ – ودور الفلسفة الإسلامية؛ سنة ١٩٨٥م.

وتعتمد دراستي هذه على الكتب الأربعة التي تُرجمت إلى العربية. وكنت أود الاطلاع على الدراستين الأخيرتين، بالإنجليزية أو العربية، غير أنني لم أفلح في العثور عليهما. وعزائي في ذلك أن الكتب الأربعة الأولى هي التي تمثل طور النضج في حياة هوفمان، وبعد أن أسلم في ٢٥/٩/١٩٨٠م، وتعبر عن فكره خير تعبير.

وفي هذه المؤلفات خاض المهتدي الكبير في معظم المسائل الشرعية والاعتقادية والفلسفية الإسلامية. ودرس التاريخ الإسلامي مستنداً إلى المصادر الكبرى المعتبرة. ومن البدهي أنه درس القانون الألماني، والثقافة والفنون الأوربية عامة. وقارن بين الثقافتين الإسلامية والأوربية.

ومن اللافت للنظر أن قوائم المراجع التي استند إليها في مؤلفاته طويلة جداً. وأن معظم مراجعه من أمهات الكتب الإسلامية والأوربية. وهو يعرف الإنجليزية والفرنسية، إلى جانب لغته الأصلية – الألمانية.

وبعد أن يدرس المرء فكر هذا المهتدي الكبير لابد أن يقف في احترام وتقدير لجهاده المرير في سبيل الإسلام.

ويمكن القول دون مبالغة إن كتبه موسوعة علمية، وإن الدراسات المقارنة فيها

---

(١) تعريب عادل المعلم؛ نشر دار الشروق؛ ط ١ سنة ١٤١٨هـ–١٩٩٧م.

(٢) نشر دار الشروق؛ ط ١ سنة ١٤١٩هـ–١٩٩٨م (لم يُذكر انه مترجم).

(٣) تعريب عادل المعلم، يس إبراهيم؛ ؛ نشر دار الشروق؛ ط ١ سنة ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م

يندر أن توجد عند مؤلف آخر، وإن معرفته بالإسلام تثير الدهشة من حيث دقتها وسعتها، كأنما أنفق في دراسة الإسلام خمسين عاماً!

وكتابه: "يوميات ألماني مسلم" كما يصفه هو: "أقرب ما يكون إلى تصوير مراحل محددة لتلك العملية العقلية المفضية إلى اعتناق الإسلام، والتي غذاها عدد محدود من التجارب المهمة، وهي العملية التي قامت فيها ميولي الشخصية العميقة إزاء مقومات الإسلام الجمالية والثقافية، أي حضارته وفلسفته، بدور مهم."(١)

وهنا يشير هوفمان إلى عاملَيْن، أعني: ميوله الشخصية، وقوى الجذب الإسلامية الجمالية والثقافية.

الطور الروحي الأخير

ويوجز المهتدي مراد هوفمان الطور الروحي الأخير من حياته فيقول إنه أمضى وقتاً طويلاً قبل سنة ١٩٨٠ في محاولة لتحديد الحقائق الفلسفية الوثيقة، فلما تحقق له ذلك أهداها إلى ولده (إسكندر) في عيد ميلاده.

وأول الحقائق التي تأكد منها زيف المذاهب الإلحادية التي تفتقر إلى الذكاء، لأن الإنسان لا يملك الفرار من اتخاذ قرار بالإيمان بوجود الله تعالى، خالق الكائنات التي يستحيل أن تكون قد خلقت نفسها!

والحقيقة الثانية الوثيقة التي بلغها تقول إن هناك اتفاقاً بين الإسلام وبين الحقيقة الكلية. فيقول هوفمان في هذا: "وهكذا أدركت، وقد هزتني الحقيقة، أنني قد أصبحت، خطوة وراء أخرى، بالرغم مني، ودون أن أكون واعياً بذلك، مسلماً بمشاعري وفكري. ولم تبق سوى خطوة واحدة أخيرة، وهي أن أعلن إسلامي رسميًّا". وفي ٢٥ / ٩ / ١٩٨٠ نطق "مراد فريد" بالشهادتين في المركز الإسلامي بكولونيا: "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، وأخذت لنفسي من بين الأسماء الإسلامية اسم مراد فريد".(٢)

---

(١) الإسلام في الألفية الثالثة – ديانة في صعود؛ ص ١٥ .

(٢) نفسه؛ ص ٧٣–٧٤ . لكن مؤلفاته كلها صدرت باسم مراد هوفمان!

ويقول هوفمان إنه كان قد عرض محطوطاً من اثنتي عشرة صفحة على "محمد أحمد رسول" - المدير المصري - الألماني لدار نشر "المكتبة الإسلامية" في "كولون"، كان قد جمعها لابنه على امتداد سنوات: "كي أحدد له ما أراه فلسفيًا حقًا". وقد أذهله رد "رسول" حين قال له: "إن كنت مقتنعاً بما استخلصته (في هذه الصفحات) فأنت مسلم!" ولم يكن بوسعي آنذاك أن أدرك ما أدركه "رسول". ولكن "لم يمض سوى أيام معدودات قبل أن أشهر إسلامي بنطق الشهادتين.[1]

وكانت تلك الصفحات القليلة تشرح الخطوات الفكرية إلى الإسلام، ولذلك نشرت بعنوان: "درب فلسفي إلى الإسلام".

ويقول الأستاذ محمد أسد إن الدكتور هوفمان استغرق سنوات طويلة في دراسة الإسلام: "وهي التي تُوِّجَتْ أخيراً باعتناقه النهائي للإسلام سنة ١٩٨٠". [2] وقال أسد أيضاً: "لقد دفعه نفوره من حضارة التكنولوجيا المادية الحديثة، وكذلك عُقم الفكر الاجتماعي الغربي وما ينطوي عليه من إنكار لكل القيم المتعلقة بمصير الجانب الروحاني من الإنسان، إلى اكتشاف التناسق بين الأشكال الفنية في العالم الإسلامي والنظرة الدينية لأبنائه". [3]

عوامل الطرد والجذب

فهناك "طرد وجذب" يقعان على المفكر: طرد مصدره الثقافة التي عاش المهتدي في ظلها، وجذب في الثقافة التي عرفها بعد أن بلغ مرحلة النضج العقلي.

هذه الحقيقة لاحظتها في حالات المهتدي الدكتور مراد هوفمان، كما لاحظتها في حالتي المهتدي محمد أسد، والمهتدية مريم جميلة. وبسبب "الطرد والجذب" ينتقل المفكر من دينه الموروث - اليهودي أو المسيحي - إلى الإسلام.

---

(١) الطريق إلى مكة؛ ص ٢٩ .

(٢) انظر: يوميات ألماني مسلم؛ ص ١٣ .

(٣) نفسه.

فالروح العاشقة للحقيقة يقلقها الشك في قضايا المصير الكبرى، ولا تستطيع أن تركن إلى الإجابات الكهنوتية المنافية للعقل. فإذا شاء الله تعالى للمفكر بالهداية يسَّر له الاتصال بالإسلام والمسلمين، ليدرس ويفكر ويقارن، ويصل - بعد عناء طويل- إلى مرفأ الإسلام، دين التوحيد المنزه عن الشرك والحلول والتثليث وغيرها من الضلالات الموروثة.

وعلى هذا يمكن أن نفسر عملية الانتقال العسيرة المضنية بثلاثة عوامل أساسية:

- الأول: وجود الروح العاشقة للحقيقة.
- والثاني: تهافت الثقافة الموروثة، (قوة الطرد).
- والثالث: قوة الجذب في الإسلام.

هذه العوامل أثرت في قيادة الدكتور مراد هوفمان إلى الإسلام. وسوف نفصل القول فيها، لنرى رأيه في المسيحية، وكيف نفر منها، ومن المجتمع الرأسمالي، وكيف عرف الإسلام نظريًا وعمليًا، من خلال معايشة المسلمين في الجزائر والمغرب وتركيا، وكيف كان الإسلام يجذبه "كالمغناطيس"، إلى أن انتهى إلى إشهار إسلامه رسميًا.

تأثره "بمحمد أسد"

ويعترف الدكتور هوفمان بأنه تاثر بآراء المهتدي محمد أسد الذي اعتنق الإسلام سنة ١٩٢٦، والذي ينتمي إلى الثقافة الجرمانية مثله، لكنه كان يهوديًا. ويبدو "أسد" كأنه الرائد لهؤلاء المهتدين، وإن سبقه كثير من اليهود والمسيحيين الذين اهتدوا إلى الإسلام.

فيلاحظ تكرار ذكر اسم "محمد أسد" والثناء عليه في مؤلفات هوفمان. من ذلك مثلاً أن هوفمان أخذ بتفسير "أسد" لعقيدة القضاء والقدر في الإسلام. وقد كانت ولا تزال موضع حوار بين الغربيين والإسلاميين. وقد فسرها "أسد" على أنها

موقف ديني يرد أحداث الماضي إلى إرادة الله، وهذا ما يضفي السكينة على قلوب المؤمنين في مواجهة الأحداث الجسام. وعند "أسد" أن هذه العقيدة لا تعني تحديد أحداث المستقبل سلفاً، وبذلك لا تنفي حرية الإرادة.

ومعلوم أن هذه القضية كبيرة جدًّا، وأنها شغلت الفكر الإنساني لدى جميع أمم الأرض، فمن المفكرين من أكد الجبرية، ومنهم من أكد الحرية، ومنهم من تراوح بين الطرفين، الأمر الذي يبيِّن عجز العقل البشري عن تناول هذه القضية. والحل الإيماني الإسلامي الوحيد هو ذلك الذي جاء في قول النبي ﷺ: "كل مُيَسَّر لما خُلق له."[1]

ويأخذ هوفمان عن "أسد" نظرته إلى السُّنة النبوية المشرفة، حيث يراها نقلة هائلة أحدثها الإسلام بقيادة النبي ﷺ في حياة العرب: من قبائل متناحرة، إلى أمة واحدة ومجتمع واحد، يربطه الدين برباط التضامن الأخوي المتين.[2]

وذكر هوفمان كتابين كان لهما أثر كبير عليه:

الأول كتاب: التناقضات الثقافية للرأسمالية؛ تأليف:

Daniel Bell. The Cultural Contradictions of Capitalism.

والثاني: قُداس على روح السياسة الحديثة: .Requiem of Modern Politics

ولم يذكر مؤلفه[3]. ومن عنوان الكتاب الأول نشعر أنه نفره من الرأسمالية. ومن عنوان الكتاب الثاني نشعر أنه نفره من النظم السياسية الحديثة، وبذلك كان من عوامل "الطرد" التي أشرت إليها سلفاً.

موقف أهله وزملائه من إسلامه

لم يذكر هوفمان أنه لمس معارضة من زوجته التي كانت في عصمته حين أسلم، ولا ذكر أية معارضة من أهله سوى أمه.

---

(١) انظر تفاصيل القضية في كتابي: رسالة إلى خطيب مسجدنا؛ نشر دار الاعتصام بالقاهرة؛ ط ١؛ ص ٥٩، ٦٠.

(٢) هوفمان؛ يوميات ألماني مسلم؛ ص ٥٥، ٥٦.

(٣) ديانة في صعود؛ ص ١٣.

يقول هوفمان: "لقد كان تقبل أمر إسلامي شاقًا وعسيراً على أمي، هذه المرأة شديدة التمسك بالمبادئ الكاثوليكية، لأنها شعرت بمسئولية أمام الله من جراء اعتناقي للإسلام -" تلك الزلة ". ولقد حاولتُ في رسالة أرسلتها لها- أن أوضح الأمر قائلاً: إن المسلم يرى أن المسيح أحد الرسل اليهود، بل هو أعظمهم، وهو المعجزة التي ولدتها العذراء، ولذلك فالفارق بين الديانتين: المسيحية والإسلام -كيفما يختار المرء- ضئيل جداً أو عظيم جداً. ولقد اختارت أمي أن تراه عظيماً جداً ".(١)

كانت أمه قد ربته على أيدي الجزويت، ورأته يتقدم في دراساته الكاثوليكية، وربما راودها الأمل أن تراه ذات يوم قسيساً. لكنه بدد آمالها، ولفظ الكاثوليكية لفظ النواة. وقد كانت على حق في اعتقادها بأن الفارق عظيم بين الإسلام والمسيحية. وقد رأى هوفمان نفسه هذا الرأي، وكل إنسان دارس للديانتين لابد أن يراه أيضاً. فالفارق بين الديانتين حقيقي، وليس مرهوناً باختيار الإنسان، ولكن بفهمه وعلمه ودراسته لأصول الديانتين.

ويرى هوفمان هذا الرأي. فإن رد فعل العائلة والأصدقاء والجيران والزملاء اعتمد على مستواهم الثقافي وطبيعة كل منهم ودرجة تدينه. فلم يعتبروه مخرفاً، يعاني من ازمة منتصف العمر. بل إنهم بعد أن قرأوا مؤلفاته حاوروه حول المسائل الإسلامية الأساسية ومقارنة عقائد الإسلام بالعقائد المسيحية. (٢)

وفي مجال عمله في الخارجية الألمانية لم يواجه مضايقات، بل إن رئيس ألمانيا "الدكتور كارل كارسن" قلده وسام الاستحقاق بعد اعتناقه الإسلام بثلاث سنوات - في فبراير سنة ١٩٨٤: "كما قامت وزارة الخارجية بتوزيع كتابي: "يوميات ألماني مسلم" على سفاراتها في البلدان الإسلامية، ليكون بمثابة الدليل والمرشد لأعضائها".(٣)

موقف الإعلام الألماني من إسلامه

وحتى عام ١٩٩٢ كان موقف الإعلام متزناً. وقد تناول أحد الكتاب بالمناقشة مؤلف هوفمان: "يوميات ألماني مسلم" في جريدة فرانكفورتر الجماينه في عددها

(١) الطريق إلى مكة؛ ص ١٤٣.
(٢) نفسه.
(٣) الطريق إلى مكة؛ ص ١٤٤.

الصادر يوم ٣١ / ٣ / ١٩٨٦ ونشر تحقيق مصور من عدة صفحات تناول هوفمان وزوجته، نشر في مجلة "بيلد" في ١٧ / ٢ / ١٩٩٢ ولم يثر ذلك أية زوابع.

ولكن عندما أعلنت دار Diederich للنشر في أوائل عام ١٩٩٢ خبراً عن صدور كتابه: "الإسلام كبديل" في نهاية العام نفسه، أثار عنوان الكتاب ثائرة وسائل الإعلام، قبل أن يصدر الكتاب، وقبل أن يقرأه أحد! واتهموه بأنه يؤيد تعدد الزوجات، وضرب النساء، وقطع الأيدي، ورجم الزناة، وإرغام العاملات معه في السفارة بالرباط - بمراكش- على ارتداء الحجاب!

وصدر الكتاب، وثبت أن تلك الاتهامات باطلة! (١)

وواضح أن تلك الاتهامات تستند إلى معرفتهم الساذجة الضحلة بشريعة الإسلام. فالشريعة تبيح تعدد الزوجات ولا تفرضه. وهي أرقى وأنظف من تعدد العشيقات المباح في ألمانيا، وقد بلغت نسبة الخيانة الزوجية بين النساء حوالي ٥٠٪! وأما الرجال فالنسبة تقترب من ١٠٠٪! والإسلام يبيح ضرب الناشزات فقط، ضرباً خفيفاً، لردعهن، لكنه يعطي النساء عامة الاحترام والحب وكافة الحقوق التي يتمتع بها الرجال. ورجم الزناة عقوبة زجرية لا تطبق إلا في حالات نادرة. وقطع الأيدي ليست عقوبة على السرقة وحدها لأن اللص يقتل ضحيته - غالباً - ويهدد أمن البلاد والعباد. والأمن والحياة قيمتان عظيمتان في حكم الإسلام، فضلاً عن المال الذي هو قوام الحياة.

وإن أحوال الغرب اليوم لَفي أمَسِّ الحاجة إلى الشريعة الإسلامية، لكي تعيد للشعوب الأمن والطهارة والنظافة، واستقرار الأسرة. (٢)

* * *

---

(١) الطريق إلى مكة؛ ص ١٥٧، ١٥٨.

(٢) راجع كتابي: البديل الأمريكي للإسلام؛ نشر دار التحرير؛ سنة ٢٠٠٤.

العوامل التي أدت إلى إسلامه

العامل الأول: تهافت المسيحية

نشأ هوفمان على الكاثوليكية، وتعلمها على أيدي الجزويت، حتى صار على دراية تامة بها، وبأدق شئونها الداخلية. وفي الوقت نفسه كانت الشكوك قد بدأت تساوره فيها.

كان يؤمن بوجود الله إيماناً يقينيًّا، ولذلك رفض فلسفة "لودفيج فيتجنشتاين Ludwig Wittgenstein" الإلحادية على الرغم من إعجابه بفلسفته.

لكنه بدأ يتساءل عن ماهية الاتصال بين الله والإنسان. وآمن أن الجواب هو: عن طريق الوحي، أو الدين.

ثم ثار سؤال جديد هو: أيُّ دين؟ اليهودية أم المسيحية أم الإسلام ؟

وجاءت الإجابة الشافية في قول الله تعالى ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [النجم: ٣٨] فهذه الآية تنطوي على مقولتين دينيتين تمثلان أساساً لفكر ديني سديد:

الأولى: أنها تنفي وراثة الخطيئة (التي تقوم عليها المسيحية).

والثانية: أنها تستبعد تدخل أي واسطة بين الإنسان وربه، لتحمل الوزر عنه (كما تزعم المسيحية أن يسوعاً صُلب ليكفِّر عن سيئات البشر). وهذه المقولة تنسف مكانة القساوسة الذين يدَّعون أنهم يتوسَّطون بين الله وعباده، لكي يغفر لهم.

ونَفْيُ وراثة الخطيئة يُفرغ التعاليم المسيحية من عدة عناصر جوهرية، مثل: الخلاص والتجسيد والثالوث والموت على سبيل التضحية من أجل الغفران للآخرين.

فيقول الدكتور هوفمان: "وبدا لي أن التصور المسيحي لفشل الله في خلقه (لآدم)، وعدم قدرته على تغيير ذلك (تغيير طبيعة آدم) إلا بإنجاب طفل والتضحية به – أي أن الله يتعذب (بموت ابنه) من أجل الإنسانية – أمر فظيع ومروع، بل وتجديف وإهانة بالغة."(١)

ويقرر هوفمان أن ١٢٥ أسقفاً هم المسئولون عن ذلك الانحراف بالعقيدة المسيحية حين اجتمعوا في " نيقية " (التي لا تبعد كثيراً عن اسطنبول) وقرروا وحدة الطبيعة بين الله (الآب) والمسيح. وبذلك فجروا الخلافات بين المسيحية والإسلام.

وكان كاهن الإسكندرية "الأب آريوس" (٢٦٠–٣٣٦ م) يرى أن المسيح ليس نداً لله (الآب) ولا خالداً مثله، على الرغم من اعترافه بالنفخة الربانية في خلق المسيح.(٢) وهذا المذهب هو الذي ساد حتى عام ٣٢٥م، وبعدها ظل موجوداً حوالي مائتي عام.

ويرفض هوفمان ذلك الانحراف الخطير الذي تقرر في "نيقية"، والذي حجب دين المسيح الصحيح، دين التوحيد، الذي كان كفيلاً بإذابة الخلافات بين اليهود والمسيحيين والمسلمين.(٣)

فكان من أسباب نفور هوفمان من المسيحية وجود أفكار تنطوي على الشرك بين عقائدها، مثل: "ابن الله"، و "أم الله" و "الثالوث المقدس: الآب، والابن، والروح القدس، والخلاص من تبعات الخطيئة الأولى عن طريق التضحية بالذات الإلهية (صلب المسيح)، والأسرار المقدسة." في حين يرفض القرآن التثليث بحزم.(٤)

ويحمل مراد هوفمان بشدة على المجتمع المسيحي الغربي: "مجتمع الكحول (= الخمور) والنيكوتين ولحم الخنزير"، وما تؤدي إليه تلك الخبائث من مصائب: من

---

(١) الطريق إلى مكة؛ ص ٣٨ .
(٢) يوميات؛ ص ٩٣، ٩٤ .
(٣) نفسه؛ ص ٩٣، ٩٤ .
(٤) الإسلام كبديل؛ ص ٣٦ .

حوادث الطرق، والطلاق، والتليف الكبدي، وانحطاط الصحة العامة، وانخفاض الإنتاج، وتبديد الموارد الاقتصادية. ويعرب عن سعادته لأنه استطاع الإقلاع عن الخمور بمساعدة الإسلام الذي يحرمها تحريماً باتًّا، بعد أن كان مدمناً لها وخبيراً فيها وذوّاقة لها![1]

ويعرب هوفمان عن رضاه عن حزم السلطات السعودية في منع أي زائر للمسجد النبوي من اتخاذ قبر النبي قبلة لصلاته. ويذكر هوفمان أن المسيحيين بدأوا بالإعجاب بالمسيح بعد وفاته، ثم تطور ذلك إلى تأليهه![2]

والحق أن المسلمين يعلمون أن قبر النبي لا يجوز أن يُتخذ قبلة للصلاة، غير أن بعض الجهال وهم قلة قليلة، ربما يقعون في ذلك الخطأ إلى أن ينبههم إخوانهم الزائرون. وأنا شخصيًّا شاهدت مرة واحدة رجلاً اقترفه، وخجل جدًّا حين ذكرته بخطئه.

ويأخذ هوفمان على المسيحية وضْع واسطة بين العبد وربه: "فالطقوس الدينية لا تعترف بغير القداس الملزم الذي يقوم به القس كشعيرة دينية رسمية". وفي مقابل ذلك يرفع الإسلام كل الحواجز بين العبد وربه، فيصلي المسلم بمفرده أو خلف إمام دون فرق سوى مضاعفة الثواب في صلاة الجماعة. ويحيط الإسلام ابناءه في أثناء الصلاة بسياج من الرعاية حيث يحرّم المرور أمامهم، ليستغرق كل في صلاته سواء كانت في محطة بنزين أو على رصيف أو فوق السقالات الشاهقة.[3]

وهكذا ظهر له أن المسيحية تقوم في أصولها على عدد من الأساطير. ويعتقد هوفمان أن "بولس" هو الذي حرَّف المسيحية وزيَّفها بعد أن صاغها "برنابة". ولم يكن المسيح فيها سوى رسول من رسل الله.[4]

---

(١) يوميات؛ ص ٩٨، ٩٩.
(٢) نفسه؛ ص ١٠٧.
(٣) يوميات؛ ص ١١٣.
(٤) الطريق إلى مكة؛ ص ٣٨.

وبدأ هوفمان ينظر إلى الإسلام بوصفه العقيدة الأساسية الحقة التي لم تتعرض لأي تشويه أو تزوير. عقيدة تؤمن بالله الواحد الأحد الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ويقول: " لقد وجدتُ في الإسلام أصفى وأبسط تصور لله. ولقد بدت لي مقولات القرآن الجوهرية ومبادئه ودعوته الأخلاقية منطقية جداً حتى إنه لم تعد تساورني أدنى شكوك في نبوة محمد ".(١)

وهكذا انتهت رحلة هوفمان الروحية الطويلة الشاقة بالرسو الآمن الواثق على مَرْفَأ الإيمان الإسلامي.

ولم يتوقف هوفمان بعد بلوغ اليقين لحظة، بل شرع يدعو إلى الإسلام، فيحاضر، ويناقش، ويكتب، ويطير من قارة إلى أخرى، ويسهم في المؤتمرات والندوات من كل نوع، لينتصر الحق، ويزهق الباطل، وتزول الأباطيل والخرافات والكراهية الجاهلة السوداء التي تعشش في قلوب الغربيين للإسلام والمسلمين، وليحل التعارف والتفاهم، والتعاون بين الأمتيْن المسلمة و المسيحية، بدلاً من النفور والقطيعة والتوتر والحروب.

ويأخذ الدكتور هوفمان على المسيحيين فهمهم الخاطئ لرسالة المسيح بوصفه ابن الله. فإنهم بذلك أحيوا تعدد الآلهة كما كان لدى القبائل الوثنية القديمة. وقد صحح الإسلام تلك العقيدة الخاطئة، حين قرر أنه "لا إله إلا الله " - الواحد الأحد: وهذا هو الإنجاز النهائي للإسلام الذي يمثل إسهاماً هائلاً في التطور الروحي للبشرية. والواقع أنه ليس هناك مجال لإضافة المزيد للكمال ولا للحقيقة، وهو ما جعل محمداً "خاتم الأنبياء أجمعين". (٢)

ومن الجلي هنا، كما في مسائل أخرى، نفور هوفمان من العقائد المسيحية الأساسية، الأمر الذي يستحيل معه البقاء على الإيمان بها.

---

(١) الطريق إلى مكة؛ ص ٣٩.

(٢) نفسه؛ ص ٧١.

ويقارن هوفمان بين الإسلام والمسيحية في مسائل عديدة أخرى:

فالمسيحية ترى أن الأمراض التي تسفر عن تعاطي المخدرات وممارسة اللواط: "انتقام إلهي عادل". لكن الإسلام يقرر أن اللواط مضاد للفطرة، والأمراض التي يسببها ناتجة عن العيش في تناقض مع "النظام الفطري للحقيقة التي نحن جزء منها".(١) والنظام الفطري هو: "الصراط المستقيم الذي يتضرع المسلمون إلى ربهم أن يهديهم إليه في كل ركعة (في الفاتحة)".

ويقارن هوفمان بين تسامح الإسلام وبين عنصرية المسيحية فيذكر أن الأسبان - بعد أن استعادوا بلادهم من أيدي المسلمين -: "قاموا بتدمير كل المساجد، من "ملقا" حتى "غرناطة"، ومن "إشبيلية" حتى "طليطلة"، بطريقة وحشية، ولم ينج المبنى الرائع في قرطبة (قصر الحمراء) من التخريب إلا لوجود إمكانية تحويله إلى كاتدرائية. وفي زمن لاحق، في القرن ١٩، لقي "مسجد الجمعة" في الجزائر (العاصمة) المصير نفسه (على أيدي المستعمرين الفرنسيين المسيحيين). ولقيت مساجد المسلمين المصير التخريبي ذاته في بلاد اليونان والصرب، بعد استقلالها عن الحكم العثماني. وبعد تحرر الجزائر عاد المسجد إلى أصله.

وعلى النقيض من ذلك، ترك المسلمون الكنائس المسيحية كما هي بعد فتح تلك البلاد، وسمحوا ببناء كنائس جديدة. وهذا التسامح مَرَدُّه إلى قول الله تعالى ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقوله تعالى ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً** ﴾ [الشورى: ٨].

وإذا كان بعض فقهاء الشافعية يحرمون قرع أجراس الكنائس، فإن حكام المسيحيين حرموا الإسلام نفسه!(٢)

"فلا عصبية قبلية، ولا طبقية، والولاء للإسلام والمسلمين، ولا نقض للعهود والمواثيق".(٣)

---

(١) يوميات؛ ص ٣٦، ٣٧.

(٢) يوميات؛ ص ٤٢.

(٣) الإسلام كبديل؛ ص ٨٠.

ويقارن المهتدي مراد هوفمان بين وثاقة القرآن والسُّنة، وافتقار الأناجيل للوثاقة. فالقرآن الكريم متواتر كله، أي أنه قَطْعي الثبوت يقيناً؛ والأحاديث النبوية فُحصَت ومُحِّصت، بأقصى دقة منهجية، في حين أن الأناجيل في معظمها ليست سوى نصوص جُمِّعت في عصور لاحقة لعصر المسيح، اعتماداً على أقاويل شائعة: "فلم نسمع مطلقاً حديثاً ليسوع رواه بنفسه قط، "ولكننا قرأنا فيما بعد تفسيرات آخرين لما يقصد قوله".[1] ولو طبقنا مناهج البحث العلمي الإسلامية التي طبقت على الأحاديث النبوية، وفرزت الصحيح من الضعيف، من غيرهما، على الأناجيل لما بقي منها شيء سوى أقوال بولس وما يمكن تسميته "البولسية"!

وهذه مسألة مهمة جداً، لأنها قضية المرجعية الدينية، والشك فيها يهدم الدين. ولقد أقر المجمع المسكوني للفاتيكان الثاني (١٩٦٢-١٩٦٥) بعد ثلاث سنوات من المناقشات بوجود شوائب، يعني أقوالاً بشرية، ضمن نصوص التوراة، وبوجود نصوص باطلة. وقد صوّت على ذلك ٢٣٤٤ بالموافقة ضد ٦ أصوات.[2] ولا ريب أن هذه الحقيقة هي التي أججت نفور هوفمان من المسيحية ويسَّرت عليه نبذها ودفعت روحه القلقة للبحث عن الدين الإلهي الحق، فهداه الله إلى الإسلام.

نقده للرأسمالية

ويلاحظ الدكتور هوفمان أن النجاح الاقتصادي للرأسمالية في الغرب قوَّض الأساس الأخلاقي لها، فانقلبت فضائل: الاجتهاد، والاقتصاد في المعيشة، والصبر، والأخوة، والشجاعة، إلى نقائص وعيوب لا يمكن العيش بها في المجتمع الصناعي. وهكذا انحرفت الفردية إلى نرجسية، والأخوة إلى الاجتماع على الحفلات الموسيقية الصاخبة، واستقلال الشخصية إلى فوضى أخلاقية، والتحرر إلى فسق، والتسامح

---

(١) يوميات؛ ص ٥٩؛ والإسلام كبديل؛ ص ٣٨، ٦٨؛ وانظر: العقاد؛ حياة المسيح ص ٢٣٢، ٢٣٣ ويُرجع إلى كتاب احمد عبدالوهاب: "المسيح في مصادر العقائد المسيحية"؛ نشر مكتبة وهبة؛ ط ١ سنة ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م، للتوسع في دراسة الأناجيل ومدى ثبوتها.

(٢) انظر: موريس بوكاي؛ القرآن الكريم والتوراة والإنجيل، والعلم؛ نشر دار المعارف؛ سنة ١٩٧٨؛ ص ٥٩، ٦٠.

إلى استواء الخير والشر، والتنافس إلى جنون الاستهلاك، والعشق إلى رياضة جنسية، والمرونة إلى كراهية التقاليد. وباختصار، كما قال مارسيل بوسو في ١٩٨٤: "مثل تلك الانحرافات لا فكاك منها عندما يُسَاءُ فهم العقل، والحرية، والحب".(١)

إن الرأسمالية (التي تقوم على القيم البروتستانتية): "تؤدي إلى التدمير الذاتي إذا ما تحولت الرأسمالية إلى هوس تقدم اقتصادي وعلمي". وعندئذ تقع التحولات التي تقوض الأساس الأخلاقي: "وتتسم المنظومة كلها بتحولها إلى نزعة استهلاكية، وتسيُّب جنسي، ولا مبالاة، وتقليد أعمى".(٢) ويؤيد هذا الرأي المفكر والدبلوماسي الأمريكي الشهير برزنسكي في كتابه: "Out of Control" حيث خصص فصلاً كاملاً لشرح مظاهر التسيب الجنسي وسماه إباحة الاستباحة Permissive Cornucopia(٣)

العامل الثاني: جاذبية السلوك الإسلامي

يعترف هوفمان بصعوبة وصف التطور الروحي الذي عاناه وانتهى به إلى الإسلام، لأن هذا النشاط الباطني الروحي أدق وأعظم وأعقد من الكلمات.

ويستشهد هوفمان بتحول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب المباغت من الجاهلية ومقت الإسلام، إلى الإيمان به. فهو يعتقد أن عمليات روحية باطنية كانت تدور في قلب عمر، وقد بلغت ذروتها بعد قراءته لصدر سورة طه. كذلك يستشهد بقول الإمام أبي حامد الغزالي: "إن العقيدة لم تتغلغل في نفسه من خلال دليل واحد واضح بعينه، وإنما من خلال عدد لا يُحصَى من أسباب الإيمان، وخبرات ومواقف مصاحبة لا يمكن تعديد تفصيلاتها". ويقول الغزالي أخيراً: "إن عودته إلى الإسلام – بعد رحلة الشك التي خاضها – كانت بفعل نور ألقاه الله في صدره."(٤)

---

(١) الإسلام كبديل؛ ص ٢١.
(٢) الإسلام في الألفية الثالثة؛ ص ١١٠.
(٣) PP.64-74
(٤) الطريق إلى مكة؛ ص ٢٩، ٣٠.

ويصف هوفمان خطواته الأولى على الطريق إلى الإسلام فيقول: "أما أنا فكنت لسنوات، بل لعقود، منجذباً إلى الإسلام كالمغناطيس حين يجذب الحديد، لأنني ألفْتُ أفكاره، كما لو كنت قد عايشته من قبل".

تأثير الشعب الجزائري

عاش هوفمان في الجزائر (عامي ٦١-١٩٦٢) في أثناء الثورة على الاستعمار الفرنسي وشهد المجازر الوحشية التي مارسها الفرنسيون وجنود "منظمة الجيش السِّري" الفرنسية الإرهابية، وشهد اغتيال العديد من الجزائريين الأبرياء الذين كانوا يُقتلون برصاصة في مؤخرة الرأس، وشهد اغتيال السيدات المحجبات في الشوارع، كما شهد جنود الجيش السري الإرهابي "وهم يشعلون النار في سيارات شحنوها سلفاً ببراميل من الوقود، ثم دفعوها من فوق منحدر إلى حي يسكنه العرب". وقد استاء من ذلك كثيراً.[1] ويقول هوفمان: "شكَّلَتْ هذه الوقائع الحزينة خلفية أول احتكاك لي عن قرب بالإسلام المعيش. ولقد لاحظت مدى تحمل الجزائريين لآلامهم، والتزامهم الشديد في رمضان، ويقينهم بأنهم سينتصرون، وسلوكهم الإنساني وسط ما يعانون من آلام. وكنت أدرك أن لدينهم دوراً في كل هذا. ولقد أدركْتُ إنسانيتهم في أصدق صورها، حينما تعرضت زوجتي للإجهاض تحت تأثير "الأحداث" التي كانت جارية آنذاك".

حَمَلتْهما سيارة الإسعاف – هوفمان وزوجته – في خضم المدينة المشتعلة بالنار، وعلم السائق الجزائري المسلم أن دمها من فصيلة (O) ذات RH-، فعرض عَلى هوفمان أن يتبرع لها بقسط من دمه الذي تصادف أن كان من الفصيلة نفسها.

وإزاء هذا السلوك الأخلاقي النبيل، الذي أثار إعجاب هوفمان، قرر أن يقرأ القرآن، الكتاب الذي صنع تلك الأخلاقيات والبطولات في الشعب الجزائري.

ولم يتوقف عن قراءة القرآن منذ ذلك الحين، حتى سنة ١٩٩٦. وقد أدرك بعد

---

(١) الطريق إلى مكة؛ ص ٣١.

فترة أن الترجمات التي يقرأها ليست القرآن نفسه، بل مجرد ترجمات تقريبية لمعاني القرآن الكريم. وهذه حقيقة تكشف عن معرفته بالقرآن الكريم وعن القيمة المحدودة للترجمات الألمانية والإنجليزية والفرنسية لمعانيه، وأنها لا تغني الباحث المدقق عن النص العربي.

ويقول الدكتور هوفمان:

تذمر العاملون الألمان في صحراء الجزائر بحثاً عن البترول، وقد تأزم الموقف سنة ١٩٦٢ ولاحَ في الأفق اقتراب هزيمة فرنسا، واحتمال انسحاب الحراس الفرنسيين الذين كانوا يحمون الألمان. وكعلاج للتذمر حمل هوفمان كمية من الويسكي – بأمر القنصل الألماني في العاصمة الجزائر– إلى أولئك الألمان.

وكان الجميع يشعرون بالخوف والجزع، لكن الجنود الجزائريين الذين كانوا ضمن الحراسة الفرنسية: "وقفوا هادئين متمالكين لرشدهم، ومستغرقين في تأملاتهم. كانت ثقتهم تنبع من إيمانهم، ومن إيمانهم فقط بالإسلام". (١)

ويقرر هوفمان أن رد فعل المسلمين كان مفهوماً له لأنهم أهل كتاب سماوي، على نقيض الهنود البوذيين والهندوس. هذا الكشف تحقق له من خلال تعامله مع الهنود سنة ١٩٦٣–١٩٦٤ في القسم السياسي بوزارة الخارجية الألمانية (٢).

وردود الأفعال تُعرَف سلفاً إذا كانت هناك مبادئ وشرائع محددة لدى الأمة المعنية. مثلاً، إذا وقع اعتداء على دولة مسلمة، فبوسع الجميع أن يعلم أن الشعوب المسلمة ستدين العدوان وتدعم قرارات الدولة المعتدَى عليها، لأن المؤمنين إخوة بحكم القرآن الكريم. وهذا هو ما حدث دائماً.

أثر التعامل مع الأتراك والسعوديين

وفي تركيا توقف هوفمان أمام محل لبيع الهدايا التذكارية. ولم يكن صاحب المحل موجوداً، فجاء صاحب المحل المجاور لكي يبيع له ما يشاء، من دكان جاره، لا من دكانه هو!

---

(١) يوميات؛ ص ٢٩، ٣٠.

(٢) نفسه؛ ص ٣٣.

وفي تركيا أيضاً دفع هوفمان ثمن سترة جلدية تم تفصيلها هناك على أن يتسلمها في ألمانيا بعد حياكتها، على الرغم من أنه لم يعرف البائع من قبل. ووصلت السترة في الموعد المحدد.

وفي تركيا أيضاً طلبت زوجته من تاجر مجوهرات ان يثمّن لها ماسة نقية كانت معها، فأخذها واختفى؛ ثم عاد بها بعد أن استشار صديقاً له أكثر منه خبرة، ولم يساورهم القلق من أنه قد يستبدل بها قطعة أخرى زائفة.

ويعلق مراد هوفمان على هذه المعاملات المدهشة فيتساءل: كيف يمكن شرح المبادئ الأخلاقية لهذه المعاملات ؟ تجار يتحلون بالإيثار بدلاً من ان تتملكهم نوازع المنافسة الدامية ؟ " هل هي الشفافية التي تسود السوق الشرقية ؟ أم هي بقية من مبادئ الأخلاق السامية التي كانت سائدة إبان النظام السائد للطوائف المهنية؟"(١)

ويرد هوفمان – وهو على حق – هذه الأنماط السلوكية الإسلامية إلى الأوامر الأخلاقية القرآنية التي تنظم سلوك المسلم.

ومن تجارب هوفمان مع المسلمين ما صنعته حماته (زكية) حين ذهبوا لزيارة بعض الأصدقاء، فإنها ضغطت على زر جرس الباب ثلاث مرات. ولما لم يرد أحد، كفّت عن تكرار الضغط، ثم منعته هو من الضغط مرة رابعة. ويرد هوفمان سلوك حماته إلى الحديث الشريف الذي ينظم الاستئذان للدخول في البيوت (رقم ٢٦١ في صحيح البخاري).(٢)

ويصف لنا هوفمان مشهداً عاطفيًا رائعاً حدث في مطار جدة، سنة ١٩٨٢م، عندما تناول مسئول الجوازات جواز سفر هوفمان وأخذ يتمعن فيه، الأمر الذي أثار القلق لدى المهتدي الجديد خشية أن يكون هناك خطأ ما ربما يعوق سفره لأداء فريضة الحج. لكن المفاجأة السارة جاءت بسرعة، إذْ أخذت الدموع تنساب على وجه المسئول السعودي، فرحاً بذلك الأخ الألماني المسلم. وقفز الرجل من فوق الطاولة ليحتضن هوفمان في حب وحرارة !

---

(١) يوميات؛ ص ٦٠ .

(٢) يوميات؛ ص ٦٣ .

ويقول الدكتور هوفمان إنه أصابته الدهشة عندما دفع أجرة التاكسي بحسب العداد فإذا بالسائق التركي يعيد إليه جزءاً من النقود قائلاً : إن العداد لا يعمل بدقة !

ويقول إن زوجته تشعر بأنها أميرة بسبب الحفاوة البالغة التي تلقاها من الباعة والتجار الأتراك الذين يحملون كل ما تشتريه من بضائع حتى باب مسكنهم.(١)

العامل الثالث : جاذبية الفنون الإسلامية

ويقول هوفمان : إن العامل الثالث الذي جذبه إلى الإسلام - بعد بطولات الشعب الجزائري، وأخلاقيات المسلمين، وبعد القرآن الكريم، هو الفن الإسلامي.

فهو مولع بالجمال. وقد خاض تجارب عميقة في فن الباليه، حتى عمل بين عامي ١٩٥٤ و ١٩٨٠ ناقداً متخصصاً للباليه في عدة صحف في ألمانيا وبريطانيا وأمريكا، ومحاضراً في "علم جمال الباليه" وتاريخه بمعهد كولونيا للباليه فيما بين عامي ١٩٧١ و ١٩٧٣ ، ولذلك كان بعض معارفه لا يعلمون أن مهنته الأساسية هي القانون والدبلوماسية !(٢)

ويعبر هوفمان عن آراء عميقة في الجمال. من ذلك مثلاً قوله : "وهناك تبيَّن لي أننا -كبشر- لا نملك إلا أن نحس جمال الجسد البشري الصحيح وما يتطابق مع مقاييسه" . وقوله : "وتبيَّن لي أخيراً أن الحركات تستحوذ على انتباهنا بسبب ما يمكن أن تنطوي عليه من مخاطر" .

ثم يعترف بأثر الفن الإسلامي فيقول : "ألهمتني أعمال معمارية، مثل الحمراء في غرناطة والمسجد الكبير في قرطبة، اليقين بأنها إفراز حضارة راقية رفيعة. واستوعبْتُ جيداً ما كتبه "راينر ماريا" بعد زيارته لكاتدرائية قرطبة، إذْ كتب يقول : "تملكني منذ زيارة قرطبة عداء وحشي للمسيحية. إنني أقرأ القرآن وهو يتجسد لي صوتاً يستوعبني بقوة طاغية، وأندفع بداخله كما يندفع الريح في الأرغن."(٣) فها هنا أيضاً نلاحظ النفور من جانب والجاذبية من آخر.

---

(١) الطريق إلى مكة؛ ص ١١٠ .

(٢) نفسه؛ ص ٣٥ .

(٣) الطريق إلى مكة ؛ ص ٣٥ .

ويقول هوفمان لقد: "صار الفن الإسلامي لي وطناً جماليًّا، مثلما كان الباليه الكلاسيكي من قبل". وأصبحت أرى الفنون اليونانية والرومانية والقوطية، وفنون عصر النهضة: "مثيرة وعريقة وأصيلة بل وعبقرية، لكنها لا تنفذ إلى داخلي، ولا تحرك عواطفي ولا مشاعري". ويرى هوفمان أن سر الفن الإسلامي: "يكمن في حضور الإسلام في حميمية شديدة في كل مظاهر هذا الفن: كما في الخط، والأرابيسك، ونقوش السجاد، وعمارة المساجد والمنازل والمدن .. وفي أسرار إضاءة المساجد وفي بنائها الديموقراطي، وفي بناء القصور الإسلامية الذي يُوحي بحركة متجهة إلى الداخل، بحدائقها المُوحية بالجنة، وظلالها الوارفة وينابيعها ومجاريها المائية ..(١)

وهذا الأثر الفني العميق كان هو الجاذب الهائل الذي انتزع هوفمان من أحضان الفنون الأوربية، والباليه خاصة، وملأ قلبه ووجدانه بالحب والتقدير للإسلام الذي ألهم أبناءه بهذه الفنون.

وكتب هوفمان فصلاً عن الفنون الإسلامية في كتابه: " الإسلام كبديل" (٢) قال فيه إن سبب خصوبة الفنون الإسلامية هو أن: "الفن الإسلامي لم يبدأ من فراغ بل صهرَ وصَبَغَ فنون الأجناس المختلفة التي دخلت الإسلام، فهو ليس نتاج جنس أو منطقة، ولكنه نتاج دين احتوى الأجناس والمناطق."(٣) و "يعبِّر الفن الإسلامي عن شعور ديني وأسلوب حياة بقدر ما يعبر عن عقيدة دينية، وهذا يقيني. فمثلاً في العمارة الإسلامية، نجد مبدأ المضمون لا الشكل، أو الباطن لا الظاهر، ليس فقط في المنازل، بل حتى القصور. فكلاهما يحفظ الجواهر في الداخل، كما تُخفي المرأة المسلمة جواهرها تحت العباءة."(٤)

* * *

(١) الطريق إلى مكة؛ ص ٣٦ .
(٢) من ص ١٠٣ إلى ١٠٧ .
(٣) نفسه؛ ص ١٠٥ .
(٤) الموضع نفسه.

ممارسة العبادات الإسلامية

تنتهي الحيرة الروحية والعقلية للمهتدين الجدد للإسلام بالنطق بالشهادتين، وخصوصاً المفكرون الذين نشأوا على اليهودية أو المسيحية. لكن مرحلة جديدة تبدأ في حياة الواحد منهم؛ ففي هذه المرحلة يتوجب على كل مهتد أن يمارس الإسلام، فيصلي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويحج إلى بيت الله الحرام، ويؤدي زكاة ماله، ويقوم بواجبات أخرى عديدة ومندوبات كثيرة، ويقيم حياة اجتماعية إسلامية جديدة.

وربما كان الإقلاع عن العادات المتأصلة الموروثة عن الديانة السابقة أصعب من اداء العبادات والمعاملات الإسلامية.

ومصدر الصعوبات يكمن أساساً في رفض المجتمع اليهودي أو المسيحي قبول المهتدي، أو إتاحة الفرصة له ليحيا الحياة التي يبتغيها. هذا فضلاً عن العادات الشخصية المتأصلة في الفرد منذ الصغر.

فليس الإسلام مجرد إيمان أو عقيدة، ولكنه – إلى جانب العقيدة عبادة وعمل يومي والتزام مالي وأخلاقي.

الإفاقة من السُكْر (أو: التوبة عن تعاطي الخمور)

وفي حالة المهتدي مراد هوفمان، كان عليه أن يمتنع عن تعاطي الخمر، أو الإفاقة من السُكْر، حسب تعبيره [١] وقد كان هوفمان: "خبيراً بالخمور حتى إنني كنت أحدد أنواع الأنبذة الحمراء المدهشة بمجرد تذوقها بطرف لساني" و "كنت أقيم حفلات اختبار وتذوق النبيذ أدعو إليها الأصدقاء". [٢]

---

(١) الطريق إلى مكة؛ ص ٥١ .

(٢) الطريق إلى مكة؛ ص ٥١، ٥٢ .

ويقول: "ولقد ظننت في بادئ الأمر أنني لن أستطيع النوم جيداً بدون جرعة من الخمر في دَمِي، بل وان النوم سيجافيني من البداية. ولكن ما حدث بالفعل كان عكس ما ظننت كلية ... صحيح أن الخمر مفيد جداً في هضم الشحوم، لكننا كنا قد نحينا لحم الخنزير عن مائدتنا إلى الأبد، بل إن رائحة ذلك اللحم الضار أصبحت تسبِّب لي شعوراً بالغثيان."(١)

وهذا الكلام يبين لنا ان هوفمان لم يجد صعوبة في الإقلاع عن الخمر، لكنه يذكر – بعد وصفه لحال الألمان إزاء الخمر– أن "مشهد مُدْمني تعاطي الخمر مشهد مهين". وهو يقرر ان تحريم القرآن للخمر هو أقوى عائق أمام انتشار الإسلام في ألمانيا: "فلن يتنازل الألماني في بافاريا ولا في كولونيا عن طعامه المفضل من لحم الخنزير ولا عن خمره المفضلة."(٢)

ولذلك اعتزل هوفمان وزوجته الحفلات الاجتماعية التي لابد فيها من شرب الخمر. ورفْضُ الشرب يفسد على الآخرين بهجتهم!(٣) ويذكر هوفمان أضرار الخمر المهلكة على الفرد والجماعة، وكيف تقع الكوارث بسبب سُكْر قادة الطائرات والسفن والسيارات. وقد فقد هو ١٩ من أسنانه، وتعرض للموت في حادث سيارة يوم ٢٨ / ٦ / ١٩٥١ في ولاية مسيسيبي بأمريكا بسبب احتساء سائق السيارة للخمر. وهو يؤمن بأن الله تعالى نجَّاه لكي يموت مسلماً.

"مَن لا يصلي ليس بمؤمن":

أدرك هوفمان منذ البداية أن النطق بالشهادتين إعلان بالدخول في الإسلام، وقبول بما يفرضه من عبادات، والتزام بما يقرره من مبادئ المعاملات، وقيم الأخلاق. ولذلك شرع فوراً في تعلم الصلاة: "فإن من لا يصلي ليس بمؤمن". وهذه حقيقة يؤكدها أهل القبلة، قولاً واحداً، بلا نزاع أو خلاف.(٤)

---

(١) الطريق إلى مكة؛ ص ٥١.   (٢) نفسه؛ ص ٥١–٥٣.

(٣) يبدو من كلامه هنا وفي مواضع أخرى ان زوجته كانت مسلمة، لكنه لم يذكر صراحة الدين الذي وُلدت عليه، ولا ذكر أنها أسلمت معه او بعده.

(٤) الطريق إلى مكة؛ ص ٤١.

وطلب هوفمان من صديق تركي أن يعلمه الوضوء والصلاة، وأدرك بعد قليل أن الصلاة: "علم كامل!" بما تنطوي عليه من قراءات وتسابيح وأذكار، وقيام وقعود، وركوع وسجود، وآداب. وتعلم كيف يصلي في جماعة، وكيف يحترم قدسية صلاة إخوانه فلا يزعجهم، وكيف يضع ساتراً أمامه، بل إنه صلّى يوماً إماماً في سان فرانسيسكو بامريكا، لأنه كان الأعلم بين الرجال الأربعة الذين وُجدوا في المسجد ! ومن تلك الحادثة استخلص هوفمان حقيقة شرعية مهمة، هي أن للمعرفة وحدها وزناً يعتد به". فقد قدموه للإمامة لأنه علمهم أن الإقامة تؤدّى بعد الأذان لا العكس!

وينقد هوفمان خطباء الجمعة في بعض مساجد المغرب، وتركيا، "لأنها تخاطب المشاعر أكثر من مخاطبتها للعقل."(١) ولأنها ترديد لما يعرفه معظم المسلمين "بدلاً من أن تعمقه". والحق أن هذه بعض مناقص الخطب المنبرية هذه الأيام، وهناك عيوب أخرى خطيرة، أهمها عدم الالتزام بالكتاب والسنة، والإغراق في الخرافات، وتطويل الخطبة، وتعدد موضوعاتها على خلاف السنة المطهرة.(٢)

إيتاء الزكاة والصدقات

وكلام هوفمان عن أدائه للزكاة يكشف عن علمه الواسع العميق بهذه الفريضة، وللصدقة، والعبادات المالية عامة. فهو لا يقلد الفكر الشائع عن الزكاة، بل يتقدم عليه، خصوصاً في فهمه لمصارفها، والتفرقة بين الزكاة المفروضة والصدقات التطوعية.

ويأخذ هوفمان على المستشرقين خلطهم بين الزكاة الواجبة وبين الصدقات: "فالصدقة يؤديها المسلم طواعية بإرادته الحرة، لأن الإسلام يحض على الإحسان. أما الزكاة فضريبة معلومة، مفروضة". وقد حدد القرآن مصارفها في الآية رقم ٦٠ من

---

(١) الطريق إلى مكة؛ ص ٤٤، ٤٥ .
(٢) انظر كتابي: رسالة إلى خطيب مسجدنا؛ نشر دار الاعتصام؛ سنة ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م؛ ص ٥، ٦ .

سورة التوبة. ويفسر هوفمان عبارة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ على أنها تشير إلى "العمل من أجل إعلاء شأن الإسلام والعمل على نشره".(١)

وقد أدى هوفمان زكاة ماله في سبيل إعلاء شأن الإسلام، عن طريق مؤسسات إسلامية في ألمانيا، عَلِمَ عنها الحرْص على أن تنفق المال في مصارفه الشرعية. وهو يضيف:

"وإلى جانب ذلك، فإنني أتنازل عن حقوقي كمؤلف لدور النشر الإسلامية، سواء في ألمانيا أو الولايات المتحدة، أو الجزائر، أو المغرب، إسهاماً مني في العمل ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (٢)

وهذا التفسير غائب عنا في مصر ومعظم البلاد المسلمة حيث تنفق أموال الزكاة على الفقراء والمساكين وبقية المستحقين، دون نظر إلى الحاجة إلى نشر الإسلام عبر المدارس والمعاهد والجامعات والقنوات الفضائية والمجلات والصحف، والفنون الدرامية التي صارت أقوى المؤثرات اليوم في توجيه الجماهير.

صيام رمضان:

وكان على المهتدي الجديد أن يصوم رمضان، أحد أركان الإسلام الخمسة. وقد فعل هوفمان في سعادة وسرور، مع معرفة واسعة بقواعد الصيام وواجبات الصائم، الأمر الذي مكنه من الأداء السديد لهذه الفريضة، ونقد الأداء الشائع الخاطئ لدى كثير من المسلمين في المغرب وتركيا، وسائر بلاد المسلمين في الحقيقة. وما كتبه هذا العالم الجليل - هوفمان - يثير الإعجاب والدهشة، لدقة معرفته بالسنة النبوية المشرفة، ورفضه للانحراف عنها.

لم يعرف هوفمان الصيام الإسلامي إلا سنة ١٩٧٧، حين كان على متن طائرة متجهة إلى إسطنبول، ولاحظ أن جاره لم يمد يده إلى الطعام كسائر الركاب. وحين تيقن من حلول وقت الإفطار شرع في تناول طعامه. إنه مسلم، والشهر هو شهر

---

(١) الطريق إلى مكة؛ ص ٨٧.
(٢) نفسه؛ ص ٨٨.

رمضان – شهر صيام المسلمين. ورأى هوفمان البستاني المسلم الذي كان يرعى حديقة بيته، وقد حرص على صيام رمضان. وصام هوفمان أسبوعاً "من قبيل التعاطف معه"![1] ولم يكن قد أسلم بعدُ.

وهذا مسلك مدهش بحق! وهو يكشف لنا عن بعض الجوانب الإنسانية لدى هذا المهتدي الكبير.

وصام هوفمان أول صيام إسلامي شرعي كامل بعد بضعة أشهر من إسلامه (في ٢٥ / ٩ / ١٩٨٠). وكان يشعر بالقلق قبل حلول الشهر الكريم، على الرغم من أنه جرب الصيام (من قبيل التعاطف) مع البستاني المسلم كما ذكرنا توًّا. ولم يتردد في الصيام، ولم يؤجله إلى عام قادم مثلاً. وقد نظم حياته اليومية بحيث لا تتأثر سلباً من الصيام.

وانتقد هوفمان صيام بعض المسلمين لمخالفتهم للسنة المطهرة. فبعض الناس: "يميلون إلى أن يعوّضوا بالليل ما فاتهم في النهار، فيشاهدون التليفزيون، ويلعبون الورق، ويحتسون الخمر ..."[2]

ويأخذ هوفمان على المجتمعات المسلمة أن استهلاكها للأطعمة يزيد في رمضان بدلاً من أن ينقص. ويؤثر الصيام سلباً على العمل والإنتاج في البلدان المسلمة.

ومن الطريف أن هوفمان كان يتصرف على نقيض ما هو شائع من الإسراف في الطعام والشراب، ولذلك كان وزنه ينقص حوالي ثمانية كيلو جرامات عند نهاية رمضان.[3] وكان ينجز من الأعمال في رمضان أكثر مما ينجزه في غيره من الشهور.

وكان هوفمان يقيم الولائم لأصدقائه المغاربة في رمضان ومن بينهم بعض مستشاري الملك وأعضاء الحكومة. وكان بيته ينقلب إلى مسجد لأداء صلاة المغرب. وكان يحضر الدروس الدينية في القصر الملكي بالرباط. وهو يعرب عن أسفه لاختلاف المسلمين حول بداية الشهر الكريم ونهايته.

---

(١) الطريق إلى مكة؛ ص ٥٧.

(٢) نفسه؛ ص ٥٩.

(٣) الطريق إلى مكة؛ ص ٦٠.

وينهي هوفمان الفصل الذي كتبه عن صيام رمضان بقوله: "إنني أترقب رمضان المقبل بسعادة غامرة، وإن لم يصدقني في ذلك أحد".(١)

نحن نصدقه لأننا نترقب رمضان المقبل في شوق وسعادة مثله.

أداء فريضة الحج

ومن مطار الدار البيضاء في المغرب بدأ المهتدي مراد هوفمان رحلة الحج إلى بيت الله الحرام يوم ٢٨/٥/١٩٩٢. بعد حوالي أحد عشر عاماً من إشهار إسلامه يوم ٢٥/٨/١٩٨٠.

وقد لاحظ أن إخوانه الحجاج لزموا الهدوء والسكينة على الرغم من ارتباك مواعيد إقلاع طائرتهم وتأجيل سفرهم يوماً كاملاً، وهو ما يتسبب عادة في ضجة وتذمر شديد في حالة الركاب العاديين. ويدرك هوفمان سبب تلك السكينة، وهو: تعاليم القرآن الكريم التي تقول ﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ**﴾ [البقرة: ١٩٧].

وهذا يدل على تفقهه في الدين منذ نطق بالشهادتين، كما يدل عليه أيضاً ما ذكره عن ملابس الإحرام للرجال والنساء، والمواقيت، وآداب زيارة مسجد النبي ﷺ في المدينة المنورة.

وأقام هوفمان في فندق تحت رعاية إدارة المراسم الملكية، حيث جرت محاورات فكرية ودينية بينه وبين رجالات من أرجاء العالم الإسلامي حتى بدت له رحلة الحج: "وكأنها جامعة متنقلة."(٢)

ومن الجلي أنه ما كان ليُسْهِمَ في تلك المحاورات إلا بفضل ما حصَّله من العلوم الإسلامية بعد إشهار إسلامه. ويصرِّح هوفمان بأنه أعد نفسه لتلك الرحلة الروحية العظيمة، فيقول: "وكان أهم شيء فيما يتعلق بالإعداد الروحي هو دراسة آيات

---

(١) الطريق إلى مكة؛ ص ٦٣.

(٢) الطريق إلى مكة؛ ص ١٠.

القرآن المتفرقة عن الحج، وبصفة خاصة في السورتين (٢ سورة البقرة) و (٢٢ سورة الحج)، وكذلك حفْظ أحاديث الرسول ﷺ الكثيرة التي تتناول الحج. وساعدني كتاب أحمد فون دنفر - "الجامع" على نحو مكثف للقرآن والحديث - كثيراً في ربْط مناسك الحج ظاهريًا وباطنيًا، ماديا وروحيًا، وهذا الأمر ليس بغريب على المسلمين الذين تؤلف عقيدتهم بين الروح والمادة معاً: إذْ أن التوجه إلى الله في الإسلام لا ينحصر في الروح فقط أو الجسد فقط ، فالمسلم في صلاته، وفي صومه، وفي نحره للأضحية، وفي حَجّه ليس حاضراً بروحه وعقله وقلبه فقط، وإنما بلحمه ودمه أيضاً. فهو إما أن يكون هو كله حاضراً وإما الا يكون حاضراً بالمرة. وهذا ناتج عن "التوحيد" كمبدأ جامع من منظور إسلامي."(١)

هذه الفقرة تكشف عن المنهج الأكاديمي الدقيق الذي اصطنعه هوفمان في دراسته للحج وللإسلام عامة. فهو يبدأ من القرآن والسنة لا من أقوال العلماء والفقهاء. ولذلك انتهى إلى المعرفة الدقيقة العميقة بالإسلام، ونجا من أخطار النقل الأعمى عن المستشرقين المدلسين، ومن الكتابات التحريفية الحديثة التي أرادت إخضاع الإسلام للمذاهب الفلسفية والسياسية والاقتصادية الأجنبية، كالشيوعية والرأسمالية، والبراجماتية.

* * *

---

(١) الطريق إلى مكة؛ ص ٢١، ٢٢ .

هوفمان المفكر الإسلامي

• تمهيـــد

درس المهتدي مراد هوفمان أهم المسائل التي ينطلق منها الغربيون للنيل من الإسلام وتنفير الشعوب الغربية منه، وقارن مبادئ الإسلام بنظائرها المسيحية واليهودية والفلسفية الغربية، وقد قال عن كتابه: "الإسلام كبديل" إنه يتناول المفاهيم الإسلامية الخلافية والمثيرة للجدل" وإنه: "دعوة على أساس علمي، مؤيدة بالتاريخ والحاضر، ونقية حرة من التماس الأعذار."(١)

أدرك المهتدي مراد هوفمان أن عليه عبادة يجب أن يؤديها كعالم مسلم، إلى جانب الصلاة والزكاة والحج وصيام رمضان، ألا وهي: العمل على نشر الإسلام وإعلاء شأنه، والدفاع عنه. وتلك هي عبادة العلماء التي تحدث عنها ابن القيم رحمه الله. ولم يتردد هوفمان في أداء هذه العبادة، فمارس الدعوة إلى الإسلام بالقول والكتابة، وتقديم القدوة في سلوكه الإسلامي الرفيع.

ويكشف هوفمان عن غايته الإنسانية النبيلة حين يكرر القول إنه يريد إزالة سوء الفهم المتبادل بين الشرق والغرب، ووضع حد للعداء، وإزالة الحواجز الثقافية بين الطرفين.(٢) والفائدة العظمى من وراء ذلك هي أمن المسلمين من عدوان الغرب وأطماعه الاستعمارية.

تقديم الإسلام إلى الغربيين

وكانت الوسيلة الفعالة للمهتدي مراد هوفمان هي: تقديم الإسلام إلى الغربيين المتخوفين منه. وقد قدمه هوفمان في إيجاز، ووضوح، ودون تحريف أو التواء، مع انتقاد الأوضاع العنصرية في ألمانيا بالذات.

---

(١) الإسلام كبديل؛ ص ٩ .

(٢) الإسلام كبديل؛ ص ٢٣ .

وأول الحقائق التي قررها هي: أن الإسلام قد صُوِّر في مؤلفات غربية عديدة في صور شائهة، كدين حرب وعنف، وأن الأقلية المسلمة في ألمانيا وغيرها سوف تتحدى الأغلبية وتحكمها بالشريعة، وأن الإسلام لا يعرف التسامح مع الأقليات، ويضطهد النساء. ويرى هوفمان أن الوقت قد حان لإحلال صورة حقيقية للإسلام محل تلك الصور الشائهة الخاطئة. وقد عمل هو في هذا عملاً شاقًا متصلاً.

فأثبت لهم أن الإسلام يعترف بالديانات السماوية، ويأمر المسيحيين بأن يحكموا الإنجيل، يقول الله تعالى ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ (١) ويقول النبي ﷺ: "أنتم معشر يهود لا تعدوا في السبت."(٢) تطبيقاً لكتابهم. ويقول الله تعالى ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨].

فلا إكراه لأحد على اعتناق الإسلام لانه ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

وتعدد الأديان إرادة إلهية، ولذلك كان الزعم بأن المسلمين يريدون القضاء على الأديان الأخرى هو مجرد خرافة.

وفي التطبيق احترم المسلمون هذه المبادئ، ولذلك بقي اليهود والنصارى على دينهم تحت حكم المسلمين قروناً عديدة في الشام ومصر والأندلس. وكل من شارك في الدفاع عن بلاده أعفي من الجزية. وكان من حق الجميع أن يتولوا الوظائف الحكومية، باستثناء رئاسة الدولة. هذا فضلاً عن حرية النشاط الاقتصادي للجميع.

ويقرر هوفمان أن التسامح قد عرف طريقه - أخيراً - إلى الغرب إزاء الوجود الإسلامي في بلاده: "ولكن يظل قانون حماية الأقليات الغربي الحديث أضيق بكثير، واقل كرماً بكثير، مما يمنحه الحق الإسلامي للأقليات الدينية، وذلك منذ أكثر من ١٤٠٠ عام."(٣)

---

(١) وهذا يعني ضمناً الا يحكموا بما لم ينزله الله فيه من أقوال بشرية!

(٢) رواه النسائي والترمذي.

(٣) الإسلام في الألفية الثالثة؛ ص ٢٥٣ .

ويذكر هوفمان أن المسلمين لا يطالبون الغرب بشيء سوى المعاملة بالمثل لكي يتساووا مع كل من يعيش معهم من أقليات وأغلبيات. ثم يعرض لمشكلة بناء المساجد في ألمانيا كمثال للكيل بمكيالين! فالبناء لا يتم إلا بعد سنوات من تقديم الطلب: "ويصرح بالبناء في موقع بغيض بجوار سلخانة أو خَلْف محطة للقطارات" ويثير ارتفاع المئذنة مشكلات عديدة منها أنه لا يجب أن يزيد على ارتفاع أي كنيسة. وقد يُمنع الأذان بعد التصريح ببناء المئذنة، دون وجود قانون يمنع ذلك!

ويذكرنا هوفمان بما أثاره الحجاب من ثورات حكومية في ألمانيا وفرنسا وغيرهما لا تزال ذيولها مشتعلة حتى اليوم.

ولكن ما يثير غضب المسلمين بحق هو قيام السلطات غير المسلمة بتفسير القرآن للمسلمين! وفي هذا التفسير يحل للمسلم أكل لحم الخنزير، وللمسلمة ارتداء البكيني، والتحلل من الحجاب ومن سائر الملابس المحتشمة!(١)

وهذه التفسيرات تقدم لأبناء المسلمين في مدارس بعض المقاطعات على أنها شريعة الإسلام، دون أن يوافق المسلمون أو يراجعوا تلك المناهج المضللة.

فأين هذا من الإسلام الذي يأمر أهل الكتاب بالامتثال لما جاء في التوراة والإنجيل؟!

نشاط علمي ودعوي

وكان هوفمان يشارك في لقاءات المسلمين الناطقين بالألمانية، مع "أحمد فون دنفر" و "محمد صديق"، وهي التي ربطت بينهم، وحلَّت الكثير من مشكلاتهم، مثل الدروس الإسلامية بالمدارس ومراجعة الكتب المدرسية، وإقامة مظلة تضم كل مسلمي ألمانيا. ويقول هوفمان: "ولقد كنت أشارك في الفترة من (١٩٨٠-١٩٨٧) في اللقاءات الشتوية بمسجد بلال في مدينة "آخن". ولقد عادت هذه اللقاءات

---

(١) الإسلام في الألفية الثالثة؛ ص ٢٥٦ .

عليَّ بمكاسب طائلة، خصوصاً تلك اللقاءات التي تُعقد في عطلة نهاية الأسبوع. ولا يعود ذلك إلى المحاضرات ومجموعات العمل ومعارض الكتب فقط، بل أيضاً إلى لقائي بمسلمين جُدد، وكذلك لمتعة الأحاديث المتجددة والشائقة، حيث تتجاذب أطراف الحديث حين تضمنا مائدة طعام واحدة، حيث كان كل منا يضيف للآخر شيئاً جديداً."(١)

فبعد إشهار إسلامه بقليل شرع في الإسهام في تلك الأنشطة الثقافية، الأكاديمية، التي يتم فيها التعليم والتعلم من كل الأطراف. وإسهام هوفمان فيها يشير إلى أنه كان قد عرف الكثير عن الإسلام قبل أن يشهر إسلامه. فإن شهريْن لا يكفيان لتمكينه من الإسهام في تلك اللقاءات العلمية مع علماء كبار مثل "أحمد فون دنفر" و"محمد صديق".

ويقول هوفمان: "منذ اعتزالي من عملي كدبلوماسي في صيف عام ١٩٩٤، وأنا أتجول كمحاضر، متنقلاً - دون فترات راحة تذكر- في الغرب والشرق، من هلسنكي إلى "كوالالمبور" ومن الرياض إلى "لوس أنجيلوس"، ومن الخرطوم إلى ليبزيج في ألمانيا، حتى أساعد في شرح فكر كل جانب (المسلم والغربي) للجانب الآخر، ولكي أقيم جسوراً من التفاهم بين الغرب والشرق، ولأسهم في إزالة مشاعر العداء التي يكنها كل طرف للطرف الآخر."(٢) إنه يحاول إزالة الحواجز الثقافية في سبيل الفهم المتبادل.(٣) وتلك غاية نبيلة جداً.

الدفاع عن الوحي

وينعي هوفمان على الفلاسفة المسلمين - الفارابي وابن رشد، والكندي وغيرهم - جَرْيَهم وراء أفلاطون وأرسطو، الأمر الذي قادهم إلى العجز عن معرفة أي شيء سوى: "أننا لا نستطيع من خلال منطقنا الإنساني أن نصل إلى إدراك حقيقة

---

(١) الصريق إلى مكة؛ ص ١٣٢ .
(٢) الإسلام في الألفية الثالثة؛ ط ١ ص ١٤ .
(٣) الإسلام كبديل؛ ط ١ ص ٢٣ .

المجهول إدراكاً يقينيًا." لقد صار الوجود لغزاً عندهم: "وإزاء لغز الوجود هذا فإنه – حتى الحقائق المدركة بالحس، مثل تلك التي ندركها بالشم أو اللمس أو الرؤية – لا تزال مستغلقة على الفهم. وبعبارة أخرى: لولا الوحي لظللنا عمياناً."(١)

ولا ريب أن الفلسفة اليونانية القديمة لدى سقراط وأفلاطون وأرسطو قد جنت على الفلسفة الإسلامية، وسببت لها العقم. وأخطر من ذلك أنها صرفتها عن تأمل الوحي والبحث في إجاباته على الأسئلة الفلسفية والكونية والأخلاقية، حتى تأخر ظهور فلسفة الأخلاق الإسلامية القرآنية إلى القرن العشرين حين شرع الدكتور محمد عبدالله دراز في بلورتها.(٢)

وموقف هوفمان من الوحي هو الرد الإسلامي الذي ينفي مزاعم العلمانية والمادية الملحدة التي تزعم أن الإنسان لم يعد في حاجة إلى وحي السماء وأن بإمكانه الاعتماد على عقله وتجاربه البشرية في تطوير فكره ودساتيره وقوانينه ونظمه وأخلاقياته.

ويستفيد هوفمان من سَلفه الألماني اليهودي المهتدي محمد أسد قوله: "إن العلوم الطبيعية وحدها لا تستطيع أن تساعدنا على اكتشاف كافة جوانب الحقيقة ... وحتى يزودنا الله بالهداية الضرورية ... بالوحي الذي أنزله على .. الأنبياء."(٣) وهذا هو ما لم يستطع الأساتذة البروتستانت والكاثوليك إدراكه.

دفاعه عن عقيدة القضاء والقدَر

ويرفض هوفمان الآراء الشائعة في الغرب عن عقيدة القدر في الإسلام، واتهاماتهم لها بإشاعة التواكل بين المسلمين. ويعلم هوفمان الكثير عن اللجاج الطويل العريض الذي ثار بشأن هذه العقيدة في مجالات الفلسفة وفي الأديان السماوية،

---

(١) يوميات؛ ص ٦٤، ٦٥ .

(٢) انظر كتابه: دستور الأخلاق في القرآن؛ نشر مؤسسة الرسالة؛ ط ١ بيروت؛ سنة ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م.

(٣) يوميات؛ ص ٥٤ .

وكيف انتهى إلى لا شيء. فليس الإسلام وحده هو الذي يقرر عقيدة القدر، بل اليهودية والمسيحية تفعل الشيء نفسه. وأما الفلسفة فقد تفرقت شيعاً، ولم تصل إلى شيء بالمرة.(١)

ويرد هوفمان الأحداث الخطيرة التي وقعت له شخصيًّا إلى تقدير الله تعالى وتدخله لتسيير حياته، لكي ينتهي بها إلى الإسلام يوم ٢٥ / ٩ / ١٩٨٠ ولكي يموت على هذا الدين العظيم.

ففي عام ١٩٤٤ تعرضت مدرسته للقصف بالقنابل، لكنه كان قد انصرف عند سماع صفارات الإنذار: " تُرى ما الذي كان يمكن أن يحدث لو أنني بقيت في المدرسة في تلك الأثناء؟".

وفي ٢١ / ١١ / ١٩٤٤ دكت الطائرات الأمريكية مدينته، بما فيها المنطقة التي لا تبعد عن منزله بأكثر من ١٢ متراً. ولو أن الطيار ضغط على الزر مبكراً عُشر ثانية، لَدُكَّ منزله، وراح هو بين القتلى!

وفي عام ١٩٤٥ كان هوفمان يحمل الطعام إلى مجموعة من السكان كانت تحتَمي في قَبْوٍ في أثناء الغارات الجوية. وكان يمر بجندي حَفَرَ خندقاً بالقرب من منزله، وكان يتحدث معه. وقد دُمر الخندق والجندي بعد أن تركه هوفمان بثوان، ولو طال حديثه معه قليلاً لذهب معه!

وفي عام ١٩٥٠ تخلف عن قطار مُتَّجه إلى نيويورك، وكان ذلك من حُسن حظه، لأن صاعقة أصابته إصابة بالغة، وألحقت الأذى بكثير من الركاب.

وفي عام ١٩٥١ سافر بالقطار إلى واشنطن، وكان يتطلع عبر النافذة أحياناً وينكب على القراءة أحياناً. وقد أطلقت رصاصة طائشة مرت من تحت ذقنه. ولو كان منكباً على القراءة لأصابت فكَّه أو رأسه!(٢)

---

(١) الطريق إلى مكة؛ ص ٧٥، الإسلام كبديل؛ ص ٦١، ٦٢.
(٢) الطريق إلى مكة؛ ص ٧٨.

ووقعت له أحداث أخرى من هذا القبيل: "تعكس سلسلة من الأسباب والنتائج التي تدل على تدخل الله في تسيير الأحداث."(١)

قضية حقوق الإنسان في الإسلام

يبدو لبعض الغربيين أن حقوق الإنسان محصورة في الثقافة المسيحية. ويعْتَبر الغربُ أن إنجازاته في مجال حقوق الإنسان أنموذج يجدر بالعالم احتذاؤه. وبعض خبراء حقوق الإنسان يرون أن المسلمين برابرة لا يعرفون حقوق الإنسان، على الرغم من أنهم لا يعرفون شيئاً عن الإسلام!(٢)

وقد رأى زعماء الثورة الأمريكية أن حقوق الإنسان مصدرها الله. ورأى اليعاقبة – زعماء الثورة الفرنسية – أن مصدرها الطبيعة.

ويقول هوفمان إنه لا يصلح أساساً لحقوق الإنسان: "إلا أساس إلهي شامل كما جاء في الإسلام." ودور الإنسان هو أن يتعلمه من الإسلام: "والخلاصة في حقوق الإنسان أنها تتوقف على الإيمان الصحيح بالله، فمن ينكر وجود الله يُعلِّق حقوق الإنسان على هواه."(٣)

ومرد ذلك إلى أن مبادئ الإسلام ثابتة خالدة، في حين أن قواعد القانون العلماني نسبيَّة متغيرة. ونحن نرى اليوم تطبيقات حقوق الإنسان على أسس عرقية عنصرية مجحفة، ترفع من شأن الإنسان الأمريكي والأوربي الأبيض، وتخسف حقوق الملوَّنين.

وتتسع حقوق الإنسان في المجتمعات العلمانية المادية لتشمل: "حق السُّكر" – أو حق نشوة الغياب عن الوعي بتأثير الخمر أو المخدرات، والحرية في ممارسة الفحشاء وعمل قوم لوط!(٤)

لا يسير الإسلام وراء تلك الأفكار الحمقاء، فهو يكفل أقدم وأشمل نظام

---

(١) الطريق إلى مكة؛ ص ٨

(٢) الإسلام كبديل؛ ص ١٢٠.

(٣) نفسه؛ ص ١٢٠.

(٤) نفسه؛ ص ١٢١.

لحقوق الإنسان في العالم . . تلك الحقوق التي بينها القرآن وشرحتها السُّنة، ويجزم الفقهاء أن تلك الحقوق لا يجوز أن يضعها الإنسان. هو فقط يستطيع أن يتعرف عليها أو يكتشفها من مصادرها. وبهذا تجد حقوق الإنسان أصلب وأمتن قاعدة في النظام القانوني الإسلامي ."(١)

وتشمل قائمة حقوق الإنسان في الإسلام:

- حماية النفس والجسد، (وهي من المقاصد العليا للشريعة الإسلامية)
- حرية الاعتقاد والعمل.
- المساواة بين الناس.
- المساواة العنصرية (لا تفرقة).
- حماية المال الخاص، (وهي من المقاصد العليا للشريعة الإسلامية).
- حرية الزواج.
- حق الدفاع عن النفس.
- البراءة هي الأصل حتى تثبت الإدانة.
- لا تطبق عقوبة قبل الإعلان عنها.
- الحماية من التعذيب.
- حق اللجوء السياسي.(٢)

ولا بد أن نضيف: - حماية العرض.

- وحُرمة المسْكن (وتحريم التجسس عليه).

ويقول هوفمان: "نخلص من كل ما سبق بأنه لا توجد متناقضات أساسية في حقوق الإنسان بين الإسلام والغرب، بل يمكن القول إن الإسلام مكمل للنظام الغربي في ذلك الخصوص."

---

(١) الإسلام كبديل؛ ص ١٢١ .

(٢) نفسه؛ ص ١٢٢ .

ولست أستطيع أن أوافق هوفمان في هذا. ويكفي حق الحرية العلماني الغربي الذي يعطي للإنسان الحق في ممارسة الفحشاء (والغرب يفرضه فرضاً على تركيا اليوم!) والحق في الكفر بالله وبكل دين! (ويحاول الغرب تعميم كفرياته على المسلمين!)

الشورى في الإسلام

ويؤكد هوفمان ضرورة العمل بالشورى في العالم الإسلامي، لأن ذلك سيكون عاملاً إيجابيًا في نشر الإسلام في الغرب، وفي تطوير المجتمعات المسلمة ذاتها. (وكل مسلم مخلص، حر، محب لوطنه، يتمنى ذلك).

فالإسلام دين ودنيا وآخرة، وتبعاً لذلك هو ينظم حياة المسلمين السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولا يكفي بحال أن يعتنق الإنسان الإسلام دون الأخذ بنظمه كلها. وهذا يخالف المسيحية إلى حد ما. ويبين هوفمان أن الفصل بين المسيحية والدولة هو فصل جزئي فقط، وأن السياسة بأوسع معانيها ذات صبغة مسيحية. والأحزاب المسيحية موجودة في معظم دول الغرب.

لكن النظم السياسية في الإسلام لا يمكن أن تشكل دولة ثيوقراطية بالمعنى الذي يتوهمه الغربيون ويكون الحكام فيها رجال دين.

وفصل الدين عن الدولة في الغرب المسيحي أفرغ أوربا من روحها، الأمر الذي حمل الأوربيين على تشكيل لجنة لـ "بث الروح في أوربا ."Giving a soul to Europe ولم تستطع العلوم والتكنولوجيا أن تجيب على الأسئلة الكبرى التي تدور حول معنى ومغزى الحياة والوجود: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ ولم تستطع أن تخمد هذه التساؤلات لدى الإنسان.(١)

وفي المقابل استطاع العالم الإسلامي -كما قرر الأمير تشارلز في ١٠/٧/١٩٩٦ في لندن - أن يحافظ بشكل أفضل على رؤية مُتَّسقة وروحانية للعالم. وهذا هو ما لم يتحقق في الغرب.(٢)

---

(١) الإسلام في الألفية الثالثة؛ ص ١١٠.

(٢) نفسه؛ ص ١١٠، ١١١.

ويقول هوفمان إن المسلمين اختلفوا حول الشورى والديموقراطية. وهو يناشد المسلمين أن يبذلوا جهودهم ليتبينوا أهم أهداف الديموقراطية - أو الشورى الإسلامية -؛ وهي عنده: تامين وجود رقابة منظمة على الحكومات لمنع أي ظلم أو تسلط وسُوء استخدام للسلطة: "وما هذا إلا جوهر الأهداف الإسلامية."

- ويتم تأسيس الديموقراطية الإسلامية على الأسس التالية:

١ - أن يكون القرآن الكريم هو المصدر الأعلى للدستور.

٢ - وأن توضع القوانين المستمدة من القرآن الكريم موضع الاعتبار، لدى قانونيين مسلمين.

٣ - وقيام حياة نيابية إسلامية امتثالاً لأوامر القرآن الكريم بالشورى.

٤ - ويوضع نظام لانتخاب أعضاء الشورى.

٥ - ولا يجوز أن يقوم الحاكم بتعيين اعضاء الشورى.

٦ - و الشورى مُلزمة (استناداً إلى سنة الرسول ﷺ).

٧ - وما لا نص فيه يشكل مجالاً واسعاً للتشريع البشري.

٨ - وتنقسم السلطات بين رجالات التشريع ورجالات التنفيذ ويرأس الدولة رجل ذكر منتخب.

٩ - ولا يوجد نظام واحد ثابت لاختيار رئيس الدولة.

ويستنتج هوفمان من هذا العرض: "حقيقة ثابتة هي أن الإسلام في حد ذاته لا يعادي الديموقراطية، بل على النقيض، يتضمن تسع لَبِنَات أساسية لتوطيد أركان ديموقراطية إسلامية، ما على المسلمين إلا العمل على تحقيقها."(١)

وأقول إن الديموقراطية الإسلامية تتميز عن الديموقراطية العلمانية بعدم خضوعها للفلسفة النسبية، والمذاهب المادية، التي تجعل التغيير لا يتوقف ولا يحترم أية ثوابت دينية أو عقلية أو علمية.

---

(١) الإسلام في الألفية الثالثة؛ ص ١٢٠.

وعرض المهتدي مراد هوفمان لقضية المرأة بتوسع في مؤلفاته، بسبب كثرة التشوهات في صورتها في الإسلام لدى الغربيين. فيتحدث الغربيون عن تعدد الزوجات، وعن الرجال المسلمين الشهوانيين، الذين يضربون النساء ويستعبدونهن. وقد أساء مترجمو معاني القرآن الكريم فهم آية القوامة.

ويفسر هوفمان هذا التوجه الغربي الخاطئ بوجود رغبة دفينة لدى الغربيين في الحط من أخلاق الإسلام، والشعور بالسعادة لذلك، في حين أنهم متورطون في ضرب النساء وقتلهن واستغلالهن في الدعارة، وإيذائهن![١]

ويرد هوفمان على تلك المغالطات بإيراد الأدلة على أن النبي ﷺ كان يحب زوجاته حبًّا عظيماً، ولم يحدث أن ضرب إحداهن قط، أو آذى إحداهن بكلمة. والغربيون يحكمون على الإسلام استناداً لسلوك بعض الجهال من المسلمين أو لعادات ينكرها الإسلام. والعالم المنصف يجب أن يميز بين:

- الإسلام كدين إلهي، والإسلام كحضارة تفاعل فيها البشر.
- والإسلام كنظرية، والإسلام كتطبيق بشري.
- ومبادئ الإسلام، والعادات والتقاليد البشرية.[٢]

وقد صحح المفسرون المسلمون تفسير الآية بمعنى أن الرجال مسئولون عن النساء.[٣] ومرد هذه القوامة: تميز الرجل عن المرأة باعتراف جميع حضارات العالم.[٤] وعلى الرغم من ذلك، يخضع الرجال للنساء في حقيقة الأمر، بما لهن من تأثير عليهم.

---

(١) الطريق إلى مكة؛ ص ١٠١ (وانظر كتابي: البديل الأمريكي للإسلام؛ كتاب الجمهورية؛ يونيو ٢٠٠٤).

(٢) الإسلام كبديل؛ ص ١٢٦ .

(٣) الإسلام في الألفية الثالثة؛ ص ١٣٧ .

(٤) الإسلام كبديل؛ ص ١٢٦ .

ويفند هوفمان إجازة تعدد الزوجات بأنه بشرط العدل بينهن؛ وهذا الشرط: "يكاد يكون مستحيلاً."(١)

وأحسب أن هوفمان لم يكن موفقاً في تفسيره لشرط العدل. فالمقصود - والله أعلم - العدل البشري، لا العدل المطلق. والآية تطمئن المسلم أنه لا يستطيع العدل المطلق. فعليه أن يعدل بين زوجاته قدر طاقته.

ويشير هوفمان إلى كارثة تعدد العشيقات في العالم الغربي.(٢) وقد أورد المترجم العربي إحصاءات مخزية عن ذيوع الفحشاء في الغرب. وهذا يذكرنا بما كتبه "برزنسكي عن إباحة الاستباحة "Permissive Cornucopia (٣) وهي ظاهرة انحلال شامل وبشع!

ويرد هوفمان على نقد الغربيين لشريعة الميراث في الإسلام فيقول: "والمنطق في ذلك واضح، فالشقيق مسئول عن شقيقته بعد وفاة والدهما. فاختلاف المسئوليات يستوعب اختلاف الأنصبة والسلطات."(٤)

و ضَرْبُ الناشزات من المبادئ التي كثر نقد الغربيين لها. ويرد هوفمان بقوله: "يوافق الشرع على ذلك إذا كان فيه إنقاذ للزواج، إذا هدده نشوز في غير محله للزوجة، وإطفاء لغضب الزوج من أن يطلق زوجته. فالطلاق -كما هو مشهور- أبغض الحلال عند الله. وقيَّد الرسول (الضرب بأن يكون غير مُبَرِّح)، أي غير مؤلم، فهو أشبه بالضرب الرمزي."(٥)

وقارن هوفمان بين التبنِّي في الإسلام، وهو محرم، والتبني في الغرب. وكلامه

---

(١) الطريق إلى مكة؛ ص ١٠٠-١٠١ . (٢) الطريق إلى مكة؛ ص ٩٨ .
(٣) Out of Control; pp. 64-74
(٤) الإسلام كبديل؛ ص ١٣ ، الإسلام في الألفية الثالثة؛ ص ١٤٦ .
(٥) نفسه؛ ص ١٣٠ .

مُلتبس إذ يقول: "لا يعطي الإسلام اسماً ولا حقوقاً للأطفال غير الشرعيين."(١) فإذا كان المقصود انه لا يعطيه اسم المسلم الذي يتعهَّد بتربيته، ولا يورِّثه، فهذا صحيح. لكن الشريعة التي حرمت التبني أمرت بنَسَب الولد إلى أمه، فإن لم يكن له نسب معروف فَنَسَبُه إلى ولائه"(٢) فيقال فلان مَوْلَى فلان. وفي الجاهلية كانت البغي تلد، فينسبون الولد لأحد الرجال ممن يترددون عليها. "فإذا ولدت جمعوا لها القافَّة أي خبراء الأنساب - فيلحقون الولد بشبيهه"(٣)

* * *

(١) الطريق إلى مكة؛ ص ١٠٤ .

(٢) القرطبي: الجامع، تفسير الآية رقم ٥ من سورة الأحزاب.

(٣) الشهرستاني؛ الملل والنحل؛ نشر الحلبي سنة ١٩٩٨؛ ص ٩١ جـ ٣ .

كلمة ختامية

وبعد، أرجو أن أكون قد وُفِّقت في تقديم صورة واضحة لجهاد هذا العالم الكبير الدكتور مراد هوفمان. فليس من اليسير على المرء أن يغير ديانته بعد أن عاش عليها حوالي خمسين عاماً منذ ميلاده سنة ١٩٣١، فتلك عملية مُضنية إلى أبعد الحدود، وتحتاج إلى شجاعة نادرة لمواجهة المجتمع الذي يرفض الإسلام ويعاديه.

لكن عقلية هوفمان العاشقة للحقيقة لم تكن لتخلد إلى الدين المسيحي الموروث الذي لا يصمد لمنطق العقل وحقائق العلم. وقد سيطر القلق النبيل على عقل هوفمان إزاء أسئلة المصير الكبرى: من أين هذا الوجود؟ وما القيم العظمى التي ينبغي أن يعيش لها الإنسان ويحققها؟ وماذا بعد الموت؟

ولم يستطع الإنجيل أن يقدم إجابات شافية لتلك الأسئلة. وكان المهتدي الكبير قد درس الكاثوليكية دراسة علمية عميقة، وانتهى إلى الشك فيها. وشاء الله تعالى أن تبعث به وزارة الخارجية الألمانية إلى الجزائر ليشغل منصباً دبلوماسيًّا هناك سنتي ١٩٦١–٦٢ . وشهد هوفمان الشعب الجزائري المجاهد وهو يتصدى لقوة استعمارية دموية متوحشة ترفض أن تعترف له باستقلاله الوطني. وأعجب الدبلوماسي الألماني بصمود الشعب الجزائري المسلم وصبره وتضحياته. وأدرك أن وراء تلك الشمائل عقيدة دينية عظيمة هي التي صنعت ذلك الشعب المجاهد.

واقبل هوفمان على دراسة الإسلام، واطلع على ترجمات معاني القرآن الكريم، فانجذب إلى الإسلام بشدة، كما نَفَر من المسيحية بشدة. ومع المضي في الدراسة المقارنة، بين المسيحية والإسلام، لم يكن أمامه مفر سوى اعتناق الإسلام.

وكان هوفمان مولعاً بالفنون، فكانت الفنون الإسلامية قوة أخرى جاذبة له.

وهو يقدم لقارئه تحليلات فنية مدهشة تكشف عن عظمة الفنون الإسلامية، حتى صار الفن الإسلامي "وطناً له ! "

وأشهر هوفمان إسلامه يوم ٢٥ / ٩ / ١٩٨٠ . وعلى الفور شرع في أداء العبادات، لإدراكه أن الإسلام عقيدة وعبادة ومعاملة. ثم شرع يعمل لتقديم الإسلام الصحيح إلى الغربيين، باعتبار ذلك عبادة العلماء، فالف الكتب، وحاضر، وشارك في الندوات التي تدور حول الإسلام، وسافر من أقصى الأرض إلى أقصاها، دون كلل أو ملل، لنشر الإسلام والدفاع عنه، ولا يزال يفعل إلى الآن.

ويبهرنا المهتدي الكبير بسعة معارفه ودقتها، وبالموضوعية الصارمة التي تعطي للحق الأولوية والجدارة والاحترام. وقد خاض في مقارنات عديدة بين المسيحية والإسلام، فلم يَهْوِ في وهاد التحيز، ولم يجبُن عن قول الحق. وتلك قدرة خارقة يفتقر إليها كثير من العلماء.

ومن حق الأمة المسلمة أن تفخر بانتماء هذا العالم الفذ إليها، وعليها أن تكرِّمه، وتقدمه إلى أبنائها، وتدرس نظرياته وافكاره في معاهدها، وأن تمنحه جائزة كبرى ليذيع اسمه في العالمين، وبذلك تخدم الدعوة والفقه الإسلامي، وتحبط دعاوى الحاقدين الكارهين لدين الله في الشرق والغرب على السواء.

الدكتور

أحمد عبد الرحمن

الفهـــرس

الموضـــــــوع | الصفحة

الفصل الثالث

المهتدي مراد هوفمان

(٨١ - ١٠٨)

الموضوع	الصفحة